

www.kotobarabia.com
رواية
العباية السودا
خالد إسماعيل
www.kotobarabia.com

العَبَايَةَ السُّودا

رواية

خالد إسماعيل

- ١ -

كان الوقت ظهرا، جاءت "الخدامة" بالأطباق و "الشوك" و "السكاكين" ازدادت ضربات قلبي وأنا أنظر للشوكة التي تشبه "المدراية" [1]، أنا لم آكل بها أبدا، بل إن حكايات أمي وأبي عن "الراحة والسعادة تتلخص في "الشوكة والسكين" وأخي "مطاوع" – غير الشقيق – قال لكل الذين سألوه عن سبب تطليقه "نادية" زوجته:

- عاوزه كل يوم وكِلْ ع السكين!

وحتى الوقت الذي حكى فيه "مطاوع" لم أكن رأيت "الشوكة" في بيتنا، و "السكين" التي رأيتها لها مقبض خشبي به "ثلاثة مسامير" واشترتها أمي من بائع "حلبي" يبيع السكاكين والفئوس والسلاسل – للكلاب – ويتقاضى "حفنة غلة" أو قروشًا قليلة..

دعاني "حميد" للأكل، فاحمر وجهي، ثم ضحك وهو يقول:

- دي أمراض برجوازية.. كُلْ على راحتَك..

---

(1) آلة بدائية تستعمل في فصل "التبن" عن "الغلة".

- لا مؤاخذه مش واخد بالي..

- برجوازية، برجوازية صغيرة، تحب تتمنظر وتوريك إنها طبقة راقية.!

شربنا العصير وحدثني عن "الفلاحين" الكادحين، وجده الذي حصل على أرض زراعية في عهد "الخـديوي سـعيد" و "الإقطاع" والثروة والسلطة، وأنا أحاول أن أحدثـه عـن "التاريخ" و "الإنجليزي" وأمراض أمي، وأحلامي فـي كليـة "الحقوق" ووظيفة "وكيل النيابة" والأرزاق التي قسمها الخالق منذ الأزل، واللوح المحفوظ، وكلام أبي عن الرزق والسعادة في الآخرة. والابتسامة لم تفارق وجهه قال:

- ثواني أنا هاريحك خالص...

مد يده إلى "المكتبة" الفخمة المرتبة وأعطاني مجـلات "ألمانيا الديمقراطية" و "بلغاريا الجديدة" و "المجلة السـوفيتية" وكتاب "أسئلة وأجوبة حول الشيوعية" تصـفحت المجـلات، أبهرتني البنات الجميلات والحدائق، وفـي عـز انبهـاري عاجلني:

- شوف.. شوف إزاي الاشتراكية خلت البلاد دي حلوة إزاي؟.. البلاد دي دمرتها قوات "هتلر" فـي الحـرب

العالمية التانية، بس الملكية الجماعية والتخطيط خلـوا البلاد دي تتقدم؛ وتحقق السعادة للناس بتوعها. يا سلام يا "عبس" لو الاشتراكية دي تتطبق في مصر، كانـت تبقى جنة، ساعتها مش هيكون فيه فقـر ولا واحـدة تشتغل فِ الدعارة عشان تؤكل عيالها.. حلـم، حلـم كبير يا "عباس"...

.. ودعت "حميد" وبداخلي هزة ورعب وكسوف، فـي الليل فتحت الكتاب وقرأت، فائض القيمة، القـوى المنتجـة، عملية الإنتاج، وصوت أبي يخترق أذني:

- الملاحظ ابن الكلب، عدى، لقيني قاعد، راح مزعقْ وخـد الدفتر من الريس وخصم اليوم، وبكره عندي تحقيـق.. ا ينعل أبوه على أبو الحكومة.. الواحد زهِـقْ.. أسـتغفر ا العظيم...

جاوبته أمي بصوت حزين:

- دم ياخده ابن الكلاب.. شا يتشك ف قلبه، يخصم اليـوم يعني هوه هيقبضك من جيب أبوه.. بـس مـا تـزعلش روحك، اللي يجِي فِ لِفْلوس ساهِلْ، يخاف عليك ربنـا بالحلال.

* * *

- إنت عارف يا "حميد".. الكتاب فهمني حاجـات، الواحـد ماكانش فاهمها.. يعني مثلا.. أبويا شغال فِ "المسـاحة" و "الملاحظ" خصم له يوم، قعد طول الليل زعلان، وأمي زعلانة، الكتاب حل لي اللغز وريحني، بس فيه مشـكلة.. إن أبويا شغال عند الحكومة.. يبقى مين اللي خد "فـائض القيمة" منه؟

- اللي خد فائض القيمة، همه "البهوات" اللي حاكمين البلـد، و "الملاحظ" ده مجرد واحد "بيروقراطي" التـاني برضـه مسروق عرقه ومش فاهم...

- السلام عليكم.. يا أهلا وسهلا... ثم جاس الرجل الأبـيض الأصلع القصير المبتسم: دا والدي "الأستاذ علي حميـدة" أبويا وصديقي فِ نفس الوقت.. ودا "عباس" صديقي مـن "بنْجا" ومن الناس المحترمين اللي باحبهم جدا...

- أهلا وسهلا يا أستاذ "عباس" لعلمك، أنـا سـمعت عنـك من"حميد" واللي عـاوز أقولهولـك.. الإنسـان المكـافح المتفوق، هوه الإنسان اللي بيحترمه المجتمـع، وإذا كـان مجتمعنا "الطبقي" ده، حرم ناس وادى ناس، فده مش معناه

الاستسلام.. الواحد يقدر يغير ظروفه، ويحسن وضـعه، وده أول درس، لازم تتعلمه، وما فيش حلاوة مـن غيـر نار.. وسلام عليكم بقى عشان أنا مسافر "القاهرة".. عندي شغل مهم فِ الوزارة...

- بابا يا "عباس" مثقف كبير؛ وبيشتغل ف وزارة الأشـغال "مهندس" وهتقعد معاه كتير إن شاء ا ...

.. خرج "حميد" وتركني أتأمـل "المكتبـة" الضـخمة والبراويز المذهبة "الرفيق لينين مع رفـاق آخـرين عشـية انتصار الثورة"؛ "كارل ماركس"، "أنجلس"، "ستالين" وقـادة الجبهة وقادة ألمان يوقعون قرار الهزيمـة، شـهدي عطيـة الشافعي؛ ثوار من الجزائر، بورسعيد عقب هزيمة العـدوان الثلاثي "علي حميدة" بالزي العسكري، شهادة من جامعة فؤاد الأول، كلية الهندسة تشهد بتفوق الطالب "علي حميدة" وتقرر منحه درجة البكالوريوس، وعلى "الطرابيزة" تليفزيون ماركة "نصر" وراديو خشبي قديم عليه أسـماء المحطـات باللغـة العربية، وفي ذهني بيتنا في "بنجا" مصـطبة عليهـا حـرام صوف "وزير" وحلّة نحاس، و "فـروج" وعنـزة وعيالهـا، وحبل معلقة عليه هدومنا، و "طاقة" فيها علبة صفيح مليئـة

بالبيض والتبن، و "مغازل الصوف" التي كان يغزل بها جدي صوف "النعجات" العشرين، و "شومة" و "حربـة" و "بلطـة" و "كيلة مصري" مدموغة عليهـا اسـم مصـلحة المكاييـل والموازين؛ و "المدراية" ومربط حمارة، ولجام، ورحاية من الحجر؛ و"دكة" وفلق نخل وحيطان من الطـوب الأخضـر، و "حجر طَرفه" أمي تهادي به النساء المصابات بحساسية في العينين، وبقايا "عجلة فيليبس" يستخدمها أبي "قطـع غيـار" عندما تتعطل "العجلة" التي يركبها كل صباح ويـذهب إلـى إدارة المساحة في طهطا؛ "وعدلية" أختي وهي تشتري "هدوم مرود" من "حسنة الحلبية" و "الشّحات أبو ربابة" الوقت قـدام بيتنا، و "الحاوي" الذي يخرج الثعابين؛ ولحظة الفزع التـي تصيب أصحاب الكلاب، عندما يصرخ شاب: "السـماوي [1] قبلي البلد" والشيخ "أنور" وهو جالس يقرأ "الختمة" يقرأ آية ثم

---

[1] شرطي مهمته الطواف في القرى حاملا بندقية وقطع لحم مسمومة، يستدرج الكلاب البلدية يقتلها، ويقطع ذيولها ويسلمها إلى "مركـز الشرطة" ، وقد ساهم الشرطي "السماوي" في القضاء على ظاهرة تربية الكلاب في "بنجا" وغيرها من القرى علما بأن "الكلاب" يحتل موقعا في حياتنا، فمن يقتل الكلب يقتل، وللكلب "خبيز" مخصوص.

يقول جملة في حكاية بدأها مع الحاجة "بسيطة" التي حجـت بيت ا   ومات زوجها، فخصصت الشيخ "أنور" ليقرأ آيـات من القرآن على روحه كل خميس، الشيخ "أنور" يحكي ويقرأ القرآن ويضحك في نفس واحد؛ "والعجل" الجـاموس الـذي يشتريه أبي ويربيه لمدة عام ويبيعه لنستفيد بالفرق بين سعر البيع وسعر الشراء وأمي وهـي كاشـفة رأسـها فـي آذان المغرب:

- يا رب تخلي لي وليداتي وتنجح "عباس" وتنولـه اللـي ف باله...

و "سلوى" و "عدلية" وأمي يوم أعطينني "الجمعية" أمي حوشَت من ثمن البيض، و "سلوى" و "عدلية" كـل واحـدة منهما كانت لها "أرنبة" ولود، باعتا الأرانب الصغيرة وفـي يوم سوق "الاثنين" قالت أمي:

- خد القرشين دول، اشتري لك كتاب تكـون عـاوزه، ولا قلم، أنا وخَواتَك ماهنعوزوش الفلوس، وكل حاجة عندنا فِ البيت ومستورة والحمد   ...

- ٢ -

"برعي هلال" كان ضمن جنودنا المحاصرين في ثغرة "الدفرسوار" وأبوه "هلال المسلوب" باع مساحات من "البيت" للجيران، فتبقى "سرادب" يبدأ بـ "غرزة" يجلس فيها الرجال يشربون "الشاي" و "الجوزة" ويدفعون له؛ وفي مواسم حصاد "القمح" و "الذرة" يحمل "الخُرج" على كتفه يجمع الصدقة من الغيطان، وزوجته "روحية" كانت تسـرح بـالأجرة، تجنـي القطن وجدتي كانت تعطف عليها بقطع الجبن والأرغفة...

حصل "برعي" على شهادة دبلوم الزراعـة فـي عـام ١٩٦٨، وفي عام "١٩٧٤" تقدم لخطبة أختي "عدلية" التي لم تكمل تعليمها؛ وقعت المعركة في بيتنا، قال جـدي بصـوته الجهوري:

- إحنا نجوزوا بِتّنا للمسلوب.. الجعان أبو لقمة؟!!

وقال أبي الموظف، المصلي، المؤمن بأن جواز البنات سترة:

- بِتّي ونَا حر فيها، ونا مش أول واحد في العيلة يجوز بِتّه لواحد غلبان.. "إبراهيم عتمان" العمـدة مجـوز اتنـين؛ ومادام هيوكلها ويشربها.. يبقى خلاص...!

* * *

بني "برعي" أوضة بالطوب الأحمر والطـين، واعتـاد الحضور إلى بيتنا؛ وفي هزار "يونس" – أحد أقاربي – معه كان يقول له:

- رايح وين يا مسلوب.. هتناسبنا على عقْب الزمن!!

والتحق بالجمعية الزراعية في وظيفة "مشرف زراعي" وتشجع عمي "سلمان" وزوج ابنته لابن عم "برعي" وكانـت حجته أنه ليس أول من صاهر "المساليب" وكـان يضـرب المثل بنا وبابن عمه العمدة "إبراهيم عتمان" الذي زوج ابنتيه لاثنين منهم.!

واعتدت الذهاب إلى بيت "برعي هـلال" كانـت أمـه "روحية" تجهز أكواب "الشاي" للزبائن و "أحجـار المعسـل" و "برعي" يرجع آخر النهار، يتغـدى بـالموجود، ويمسـك "السنّارة" وعجينة الطعم، وأنا معه، ويجلـس للصـيد فـي "الترعة" مع أذان "المغرب" يرجع والكـيس "مليـان سـمك"

تنظفه "عدلية" وتقفليه، وتجلس "روحية" و "برعي" و "عدلية" و "بخيتة" أخته حول الطبلية؛ سنوات على هذا الحال، حتـى انقلاب الوضع، أصبح الـذين يسـافرون إلـى "السـعودية" و "اليمن" و "العراق" و "الأردن" يرسلون "الدولارات" علـى عنوان "برعي" وهو – ناصـح وشـاطر – كـان يحـول الدولارات إلى "جنيهات" ويبني في بيتـه الجديـد ويسـرق "الكيماوي" ويبيعه بسعر أغلى من السعر الرسمي، ويسـرق "المبيدات" وكلّه بالقانون، ويدخل "جمعيات" ويسدد، وصـار البيت "عمارة" من ثلاثة أدوار و "عدلية" كانت تقول:

- بيتنا بنيناه من عرق "برعي" لا رحنا "خارج" ولا مدينا إيدنا لْحد...

وفي لحظات الشجن والحقد على "برعي" تقول:

- ابن الكلب المسلوب.. استحملت معـاه كتيـر، شـلت الطين؛ وجعت لحد ما عملت له بيت ولا تَمـر فيـه.. برضه الواطي واطي.. وما حدش ياخـد أكتـر مـن نصيبه...

لأنه أدمن زيارة البيوت الطبيخ [1]، تحت ستار "ضرب الحقَن" استغل معرفته بتومرجي - من مشطا – تعلـم منـه المهنة؛ وأصبح في النهار "مشرف زراعـي" وفـي الليـل يضرب "الحقن" وحقق مكاسب كبيرة؛ وتحول البيـت إلـى "وحدة صحية" أو مستشفى صغيرة، فيـه القطـن والشـاش والمراهم، ولانت كلماته مع "الحريم" وسرى الكلام، وأهمـل "عدلية" بل إنه أدمن "الحشيش" كان يسهر مع "خيري محسب" ناظر المدرسة الابتدائية، لكنه لم يجرؤ أبدا على "عزومـة" واحد من أصدقاء الكيف، لأن "عدلية" كانت واضـحة فـي تهديدها:

- مطْرح ما تغور غور، لكن تجيب لي الصيع فِ البيت نقطع رقبتك...

وأصبحت حكاية "عدلية" – بفعل شـكاوى "برعـي" ـ للناس على كل لسان في بنجا:

---

[1] التي لا رادع لها، تطرقها الأقدام في أي وقت من الليل والنهار.

- يا ولاد.. المرة متجوزها ليها خمس سـنين، لاشـالت ولا ولدت عاملـة زي النخلـة الـدكر ونـا صـابر وما عاجبهاش.!

.. لم تكن"عدلية" جبارة، بقدر ما كانت محبطة وضحية، في طفولتها أصيبت بالحمى الشوكية التي تركت آثارها على جهازها التناسلي "ضمور في المبايض"؛ وعقب زواجها مـن "برعي" أصبحت زبونة دائمة في عيادات أطبـاء "أمـراض النسا" وبعد عشر سنوات قرر – الدكتور "علي مهران" أستاذ أمراض النساء بالقصر العيني – أن "مبايض" عدليـة غيـر موجودة، نتيجة خطأ جراحي [١] وقرر "برعي هلال" الزواج، واشتعلت النار في قلب "عدلية" ولكي تهدأ قال "برعي":

- أنا عاوز نخلّف لي حتة عيـل.. حـرام تظلمينـي.. اخطبي لي واحدة على مزاجك واللي تعجبك أنا موافق عليها...

* * *

(١) المسئول عنه طبيب مبتدئ.. في ذلك الوقت. وهـو حاليـا عميـد إحدى كليات الطب في الصعيد!.

مرة غافلت "أم برعي" ودخلت مقام الشيخ "سعد السعيد" دفنتُ رأسي في الأثواب الحرير التي كانـت تسـتر هيكلـه الخشبي برأسه الضخم المصنوع على هيئة "كـرة" اكتشـفت القبو الذي يشبه "بناني الحمام" أدخلت يدي، عثـرت علـى ورقة قرأتها..

"سيدي الشيخ سعد السعيد"

ولي ا ...

نرجو منك الوقوف معي في امتحـان شـهادة دبلـوم الزراعة، وصلى ا على سيدنا محمد وعلى آلـه وصـحبه وسلم".

والتوقيع "برعي هلال".

والذي شجعني على المغامرة، امرأة كانت تأتي إلى بيت "هلال" تصلي في "المقام" وتدفن رأسها في الأثواب الحرير، وتبكي، وبعد ساعات من بكائهـا وصـلاتها تحضـر لهـا "روحية" صحن "أرز" فتأكل وتلملم ثوبها وتنصرف...

وإخوة "برعي" خمسة ذكور وبنتان "محمود" يعمل سائقًا في "شبرا مصر" و "جابر" يملك مستودع مياه غازيـة فـي عزبـة رسـتم بشـبرا الخيمـة، وكـان يجعـل "برعـي"

يخدمه – مقابل اللقمة والقميص والبنطلون – طوال سـنوات دراسـته "الإعداديـة" و "الثانويـة" وظلـت أختـه "بخيتة" – الصغرى – تخدم أولاده، حتى ألحت "عدلية" فـي طلبها، فاضطر "برعي" للسـفر وإحضـارها، و "صـباح" تزوجت في "صدفا" من واحد يعمل "فراشـا" فـي الوحـدة البيطرية، و "قاسم" و "حمدي" و "نصر" وكلهم يعملون فـي مصانع الطوب في الإسكندرية ولم يلتحقوا بالمدارس، يقيمون في غرف ملحقة بهذه المصانع ولا يحضرون إلـى "بنجـا" إلا في الطوارئ...

* * *

تزوج "برعي" بوساطة أخته "صباح" فتاة "فايتها الدور" يتيمة، وعاشت معه عامين، ولم تنجب، وعنـدما قـرر أن يطلقها فوجئ بأنه مطلوب منه أن يدفع ٨ آلاف جنيه قيمـة وصل أمانة غافله المأذون – وهو من أقارب أمها – وجعله يوقع عليه ضمن "القسايم" الأربع التي يوقع عليها "الزوج" في دفتر مخصص لذلك، وكانت "الورطة" شديدة على "برعي"..

.. دفع المؤخر، و "القايمة" ولجأ إلى بلاد طليقته، وحـل العمدة المشكلة، بأن جعل "برعي" يدفع أربعـة آلاف جنيـه نصف قيمة إيصال الأمانة المدسوس عليه!

طوال فترة الشد والجذب والتجهيز لجلسـة "الطـلاق" كانت "عدلية" تعيش حالة حزن فهي التي علمته كيف يـدعو زملاءه في الإدارة الزراعية لتناول وجبة الغداء أو العشـاء، حتى الجلاليب الصوف، لبسها بتشجيع منها وهو الذي كـان يقول:

- وا "عدلية" لبستنا اللي عمر أبونا مالبسه.!

عشرون عاما مرت على زواج "عدلية" والأمـل فـي الإنجاب يساوي "صفر" لكنها لم تتخل عن "برعـي" وبعـد طلاق ضرتها، أصرت على تزويجه، وانهمكت في الصـلاة والصوم، وانهمك هو في اللـف علـى البيـوت ومرافقـة "النسوان" وضرب الحقَن.. في سنة واحدة أصيبت بالتهـاب الكبد "الوبائي" و "سرطان الثدي" نقلتها إلى مستشفى أسـيوط الجامعي، وعندما أجريت لها العملية وأفاقـت بكـت وهـي تتحسس صدرها:

- يا ربي.. حرمتني منهم ليـه؟... يعنـي أنـا معايـه غيرهم؟!!

* * *

حكايـات أسـطورية، كـان يحكيهـا "برعـي" عـن أبيه – صاحب "الغرزة" – الذي كان حالة فريدة في تفضـيل "الكسل" على "العمـل" يقـول "برعـي" – عنـدما يـذكر الآباء – إن أباه كان جالسا في صحبة زبائن الغـرزة – ذات ليلة من ليالي عام ١٩٥٦ – ودخل رجل غريـب، مهيـب الطلعة، يضع على كتفه عباءة مـن الجـوخ، سـلّم علـى الجالسين، وطلب الطعام، فجاء "هلال" – بآخر رغيف فـي البيت وآخر قطعة جبن وأكرم الضيف، وسقاه "الشاي" وحياه بتعميرة "معسل" ودعاه للمبيت والرجـل كانـت لـه قصـة تتلخص في أنه من أثرياء"إسنا" – التابعة لمحافظـة "قنـا" – وبينما هو راكب القطار، فوجئ بسرقة فلوسه فاضطر إلـى النزول في محطة "طهطا" والمشي حتى وصل إلـى "بنجـا" قاصدا بيت "هلال المسلوب" بناء على نصيحة الناس الـذين قابلوه في أول البلد. ويترحم "برعي" على أبيه الكريم ويقول:

- كل اللي كانوا قاعـدين مارضـيوش يـدوا الراجـل الغريب.. أبويا بس هوه اللي عطاه القرشين اللي كانوا معاه.

حتى أنا فاكر وكنت صغير.. يومها بيتنـا مـن غيـر عشا.. وفي تلك الليلـة – تقـول الأسـطورة – إن "هـلال المسلوب" قال لزبائنه إنه سوف يكافئـه ا أحسـن مكافـأة "عشوة لحم" وبالفعل داهم مرض مفاجئ أحد عجول "المقدس" خليل، وذبحه، وأعطى رطلين من لحمه لـ "هلال" فتعجـب الحاضرون ورأوا أن "هلال" فيـه شـيء ، وأن الـنفس الطاهر لصاحب المقام الشيخ "سعد السعيد" هو الذي يحمـي الرجل الطيب وأولاده الثمانية.!

"روحية" زوجة "هلال المسلوب" تنتمـي إلـى أسـرة حلاقين في "العقال البحري" شرق النيل تزوجها "هلال" فـي رحلة من رحلاته إلى "شرق النيل" بصحبة العمـدة الكبيـر "عتمان" الذي كانت تربطـه علاقـة صـداقة مـع عمـدة "العقال" وكان "هلال" يقوم بدور المرافق الذي يمشـي وراء "الجحش" قابضا على عصاه، ويشتري طلبات العمدة ويحمل عنه الأشياء، وعندما رأى "روحية" في بيت عمدة "العقـال"

أفضى برغبته في الزواج منها، وتم له مـا أراد، ومنـذ أن تزوجته لم تر يوما أو ساعة هنية؛ وعندما قـرر أن يفـتح "الغرزة" أمام راغبي قضاء وقت طيـب وراغبـي تـدخين "المعسـل" و "الشـاي" تولـت أعمـال تسـليك قلـوب "الجوز" وتجهيز كراسي المعسل وعمل الشـاي، وتعلمـت تدخين السجاير وملاطفة الحاضرين، والنوم مع من يرغـب فيها، وخدمت في البيوت ومدت يـدها وقبلـت الصـدقات، وعندما مات خلقت له حكاية استكملت بها حكايـة الرجـل الغريب، قالت إن بعض "الأنفار" من بلدنا، ذهب للعمل فـي "إسنا" فحضر إليهم رجل – علـى المحطـة ودردش معهـم فعرفهم فدعاهم إلى بيته الكبير، وأصـر علـى استضـافتهم ثلاثين يوما وليلة، وعندما قرروا العودة، حملهم هدية قوامها أرادب "البلح" و "السمسم" و "العدس" وكان حريصا علـى أن يقول لهم:

- أنا أكرمتكم عشان خاطر "هلال" بتاع "الغرزة" الراجل الزين اللي شالني فِ زنقتي وعطاني حقّ "التسـكرة" وعشاني عز ماعياله عريانين مالاقيينش الملح.!

* * *

مات "هلال المسلوب" بطريقة تناسب حياته الفوضـوية الفقيرة، كان في "طهطا" – يوم السوق – واشترى "الفحـم" و "المعسل" وركب "العربية" وأمام طريق بلدنا، نـزل، مشـى خطوات، ثم تذكر الأشياء التي تركها فـي العربيـة، رجـع مسرعا، فخبطته "عربية إسعاف" سال دمه، فحمله المسعفون إلى مستشفى "طهطا" العام، في اليوم التالي صعدت روحـه إلى بارئها؛ فجاء أولاده من"شبرا الخيمـة" و "الإسـكندرية" دفنوه ونصبوا "العزاء" وعند سفرهم أصر "جابر" علـى أن يصطحب معه أخته "بخيتة"، فقال أهالي البلد إن "جابر" جدع وصاحب واجب ماهانش عليه يسيب أخته البالغة مـع أمهـا المسكينة، ومرت عشر سنوات، في آخرها قالت "عدلية" لـ "برعي":

- روح هات بخيتة، نجوزوها ونستروها وبزيادة خدمتها فِ البيوت...

وجاءت "بخيتة" فتاة سوداء، ثقيلـة الأرداف، شـعرها "أكـــرت" تلـــبس "ع الموضـــة" وتحكـــي لـــ ـ "حـــريم الشق" – ذكرياتها في "عزبة رستم" وفـي طفـولتي كنـت أسمعها تحكي عن طوابير العيش، وقنابل البمب التي يعملها

مراهقون، ويلقون بهـا علـى "البنـات" بقصـد المعاكسـة والمداعبة، و "اللحمة المفرومة" و "المكرونة بالبشاميل" وإذا طلبت أمها "روحية" منها عمل شـيء كانـت تقـول "OK" واستمعت حكاياتهـا عـن "جنينـة الحيوانـات" و "الأسـد" و "الحمار الوحشي" وعيال أخيها "جابر" و "آمـال" الطالبـة بكلية الفنون التي ترسم "الوشوش" – خلق الناطق – و "هشام" الطالب بكلية العلوم الذي يشرح "الضفادع" بعـد أن يرشـها بمادة "البنج" و "علياء" التي تجيد السباحة، وتمارس هوايتهـا في "حمام" النادي الأهلي...

* * *

شاع خبر وصول "بخيتة" واستقرارها، ومقـام الشـيخ "سعد السعيد" ساهم في تقـديمها للـراغبين فـي الـزواج، فالأمهات و الجدات اللاتي يقصدنه لنيل البركة، تحولن إلـى "جهاز إعلام" يتولى الإشادة بها، وبأخلاقها ونظافة هـدومها، لكن كبر سنها "٢٥ سنة" أخرجها من "الفئة الأولى" ووضعها في الفئة الأخيرة، وخفتت نبرة حلمها، فبدلا مـن أن تحلـم بعريس لم يسبق له الزواج، أصبح حلمها يقف عنـد حـدود الرغبة في الزواج من "رجل" أي رجـل، أرمـل، مطلـق،

متزوج من أخريات؛ وقد كنت – بالمصادفة – شاهدا على محاولتين لخطبتها، المحاولة الأولى كان البطل فيها "أحمد الشوكي" الأسمر القصير الذي يطوف شوارع بلدنا وعلى كتفه صندوق عدة إصلاح "بوابير الجاز" ولم يكن في الأمر وسطاء، رآها بينما هو جالس في أول الشق يستقبل "البوابير العطلانة" – وهي تخطر وفي يدها "البابور" أصلح البابور، وفي اليوم التالي جاء لابسا "الجلابية" وعلى كتفه "لاسه" زرقاء، وفي المكان الذي كان "غرزة" – في عهد المرحوم هلال – جلسنا، أنا و "برعي" و "أحمد" و "روحية" وتولت "عدلية" أمور الضيافة، وبعد أن شرب العريس الشاي، وضع في الصينية "خمسين قرشا" ورقة واحدة، وابتسم وهو يمد يده للصينية التي كانت تحملها "بخيتة".. وبعد ساعة أو ساعتين انصرف "أحمد" وكفّ عن الطواف في شوارع بلدنا، وحل محله" بشرى" – الطماوي – أول من أصلح وابور جاز ماركة "بريموس" في الخمسينيات.!

المحاولة الثانية، كان بطلها "عبد العزيز الحرامي" وينتمي إلى قرية "العتامنة" المجاورة، وهي محاولة مختلفة في كل شيء، فالزيارة تمت ليلا، ووسيلة الانتقال كانت

"حمارة" – للعريس – و "حمارة" أخرى لأبيه، والمكان الذي جلسنا فيه هو نفس المكان، إلا أن "عبد العزيز" ابتدع طريقة حديثه للإعلان عن رغبته في الزواج، عقب شـربه كـوب الشاي المحمول على نفس "الصينية" بأيدي "بخيتة" أخرج من جيب الصديري " قزازة عطر" ورشّ بها هدوم الحاضرين.. وانتهى اللقاء، وبعد أيام قال "برعي":

- أنا رحت "العتامنة" وسألت عليه واحد كـان زميلـي فِ الدبلوم، وعرفت إنه "حرامي" نَشّال في القطارات، وعليه أحكام وهارب م الجيش...

* * *

في المرة – الثالثة – تزوجت "بخيتـة" مـن "ربيعـي" الشاب الأبيض النزيه، سائق "العربية الأجرة" الذي سافر إلى "السعودية" وكون ثروة أتاحت له بناء بيت من دورين وشراء "عربية رمسيس" وارتداء جلاليب نظيفة، ووضع "الشـامبو" على شـعره فصـار ناعمـا كـالحرير، وبعـد أن ماتـت زوجته – ابنة عمه – ولم تنجب له، فكر في الزواج ووقـع اختياره على "بخيتة" وفي خلال شهر، كانت عروسا في بيته، في الصباحية ذهبنا لنبارك ونهنئ العروسين، فكان المنظـر

في غاية البشاعة.. "بخيتة" ترتدي جلبابا أسود، وعلى وشـها "هباب" الفرن، وبين الحين والآخر، تصرخ طالبة المدد مـن السيدة زينب و "سيدنا الحسين" وقال "ربيعي" إنه طوال الليل لم يتوقف عن ضربها بالكفوف والعصي، لأنها ولعت فـرن الخبيز وسكبت "الجاز" على "المرتبة" وعلى جسمها وكـادت تنتحر.!

على الفور طلبت "روحية" من "برعي" أن يذهب إلـى "العقّال البحري" ويحضر "الشيخ" ليفك السحر الذي "شـندل حال" بخيتة وأفسد فرحتها، وهي الطيبة، اليتيمـة التـي لـم تشعر بالسعادة منذ أن مات أبوها، واتجهت سـهام الاتهـام وأصابعه إلى أفراد أسرة عم "ربيعـي" الـذين حـاولوا أن يزوجوه أخت المرحومة زوجتـه لكنـه رفـض.. ودعـم "ربيعي" – الاتهام الموجه إلى أسرة عمه – بقوله إن "الـواد حسني" شقيق زوجته، كان يعمل مساعدا للنقاش الذي دهـن جدران أوضة النوم، وإنه أصر على ذلك حتى يـتمكن مـن وضع "العمل السحري" في البيت فيفشل الزواج وترتاح أمه!

.. جاء "الشيخ" من "العقال البحـري" وكتـب أوراقـه وأطلق بخوره، وعادت بخيتة إلى سابق عهـدها، ضـاحكة، هادئة متسائلة:

- إيه اللي حصل لي.. إيه اللي جرى.؟

وقالت أمها باكية:

- اسم ا   يا ضنايه. عين وصابتك، بس ربنا كسفهم ولاد الكلاب اللي عملوا لك العمل...

* * *

عشرون عاما عاشتها "بخيتة" في بيت زوجهـا، تأكـل "لحمة الراس" و "الفشة" و "الكرشة" وإذا غلطت في شـيء، أو قالت كلمة جارحة؛ نالت عقابها بالكرباج السوداني الـذي اشتراه "ربيعي" خصيصا – لتأديبهـا، بعـد أن زاد وزنهـا وغارت عيناها في لحم وشها السمين، وبعد أن أجبرته على طرد أمه "فايقة المعداني" إلى بيت أبيها، وبعد شكاوى أختـه "فاطمة" من سوء استقبالها وحرمانها من خير أخيهـا الـذي تولى شئونها بعد أبيها "شحاتة مدكور" الهارب من مسئوليات "العيال" وانتهى به المطاف في قرية "قاي" – إحـدى قـرى مركز "إهناسيا" في محافظة "بني سويف" وعـاش وتـزوج

وأصبح "عمدة" على هذه القرية التي يعمل سكانها في زراعة "الشمام" و "الذرة" وكانوا قبل ثورة يوليو أجراء في أرض "حيدر باشا لملوم".

في اليوم الذي عرفت فيه "بخيتة" خبر خطبتي، ذهبت إلى أم "دعاء" ناصحة:

- ما تجوزوش عباس، دا كان خاطب واحدة من "مصر" وبوظْها وسابها، وخطب واحدة من "أسوان" وصايع ما ينفعشي مع الأبلة "دعاء"..

زعلت "عدلية" أختي وقالت لأم "دعاء":

- دم ياخدها المسلوبة بت المسلوب.. اللي ياما وكّلْتها وشربتها، ولولا أنا كانت قعدت خدامة فِ بيت "جابر" لحد ما ماتت...

- ٣ -

أم "دعاء" اختارت أن يكون "اللعب ع المكشوف" وعلى مزاجها، أدخل "البيت" تسلم علي، ثم تنظـر إلـى "دعـاء" وتستأذن، تغيب "ساعة" أو ساعتين، وقبل أن تدخل "الأوضة" تتكلم بصوت عال، أي كلام.. تنادي "سـعد" تشـتتم "الـبح" و "الفروج" المهم عندها هو إشعارنا بأنهـا قادمـة.. لأنهـا تفترض أن بقاءنا أنا ودعاء في خلوة، يعني "حضـن سـخْن وبوسه طويلة".

ومن باب "المفهومية" توزع أولادها الثلاثة على مهـام تستلزم الغياب لوقت طويل.."سعد" يـذهب لتغييـر أبنوبـة البوتاجاز من مستودع في "طما"، "حسن" يذهب إلى "الغـيط" لإحضار "شوية حشيش" للأرانب "فيصل" يذهب إلـى بيـت جدته يلعب هناك، ويقضي حاجاتها من "الدكان"..

الجميل في "دعاء" صدرها الصغير الذي لم تحبه أبـدا، وكان يسبب لها "تعاسة" وحزنًا، كلما أمسكتُه، طفح الحـزن على وجهها وقالت:

- صغيرين.. مش كده؟!

- لأ.. حلوين خالص...

- كان نفسي يبقوا كبار زي بتُوع خالتي وأمي...

- أنا عاجبني.. دا عسل...

وتخطر على بالي أغنية صديقي المطـرب "مصـطفى رزق" التي يقول فيها:

ريحة القمري اللي راقد

فوق ضلوعك

مش ناسيها..

و "عدلية" أختي أحبت "دعاء" لأنها كانت تناديها "خالتي عدلية" وفي مرة أعطت أمها "مائة جنيه" وقالت لها:

- ابقي اشتري حلق لـ "دعاء" هدية مني..

فاستوقفت بائع " كتاكيت" واشترت بالمائة جنيه، وبعـد شهر ارتفعت حرارة الجو فماتت "الكتاكيت" وجاءت تشـكو لـ "عدلية" .. و "عدلية" حكت لي ما جرى وقالت بشماتة:

- دا ذنب البتّ الغلبانة...

* * *

"برعي هلال" دخل "على الخط" يدخل البيت في غياب أبو "دعاء" المسافر دائما بحكم طبيعة عمله فـي "المـرور" بالتحديد في إدارة مرور "بني سويف" يغيب شـهرا ويعـود ليقضي أجازة ثلاثة أيام، لا يخرج من البيت؛ ولا أحد مـن أقاربه يشعر بوجوده...

وغيابي في "القاهرة" ورغبة "عدلية" أختي في "سـتري قدام نسايبي" خلقت دورا مهما للسيد "برعي" تعطيه "عدليـة" اللحم والعيش ليعطيه للعروسة – كل خميس – علـى عـادة ناس بلدنا، فيبقى مع "أم دعاء" ويخلط الجد بالهزار، ويقفـش ويمسك حتى أنني رأيته بعيني؛ كنت جالسا علـى "الكنبـة" وأم دعاء على "الكنبة" المقابلة، كانت شكواي بخصوص عدم السماح لي بالجلوس – جلسة عاطفية خاصة مع "دعاء" – قد أثيرت على مستوى الأسـرتين؛ واسـتغل "برعـي" هـذه الشكوى.. جلس بجوار أم دعاء، وقال:

- إنتي يا دعاء.. ما تعرفيش تمسكي إيد "عباس" كده؟.

وهو يمسك يد أمها، وأمها تضحك وتقول: يوه يا أستاذ "برعي".. بالراحة عليه.!

فاضطررت للابتسام؛ لكنني أحسستُ بأن علاقة سـرية نشأت بين "برعي" وأم دعاء التي كانت قد قالت لي:

- يا عباس.. أنا متضايقة من دخلـة الأسـتاذ "برعـي" علينا...
- ليه حصلت منه حاجة؟!
- أبدا.. بس أنت عارف إن "حسـب ا " غايـب علـى طول، وبلدنا بتاعة كلام.!

* * *

دخل علينا "سيد" خال دعاء، وسألته عن أحواله وتذكرنا سنوات اللعب والجلوس في "الجنينة البحرية" وحب "البنـات" من طرف واحد، قامت حماتي وأحضرت أطباق "المكرونة" و "الملوخية" واللحم والعيش، ونحن نأكل سألته:

- مش ناوي تتجوز يا "بو السيد" ولا إيه؟
- نتجوز منين؟.. ما أنت عارف البير وغطاه.!
- عارف إنك معاك "بيت" وشغال والحالة تمام، إيه اللي مانعك؟
- مش استقلت؟. ليه انت مش عارف؟
- لا وا ما نعرف...

- وما تعرفش إني كنت خاطب من إسكندرية، وفسـخت الخطوبة؟!

اقتحمت حماتي الحوار وقالت:

- اتعارك مع "المهندس" وراح مسـتقيل، وراح اتَلم على يِتّ من ع البحر المـالح بتـاع إسـكندرية، وراحت لاهفة اللي وراه واللي قدامـه.. وبـس آدي الحكيوة كلها.. ومن نهارهـا.. وهـو قاعـد، مقـدم "بالدبلون" ع البنك [١] ولليوم ماحدش قـال لـه تلـت التلاته كام..

احمر وجهه وقال:

- دي ذنوب ناس.. ربك بالمرصاد، الواحد صاع كتيـر ولعب مع حـريم كتيـر وفِ الآخـر أدينـي خـدت الخازوق...

([١]) تقصد أنه تقدم للصندوق الاجتماعي للتنمية الذي يمول المشروعات الصغيرة ويمنح حملة الدبلوم " المتوسط " وحملة المؤهل العـالي مبالغ بقصد القضاء على ظاهرة البطالة وهذه الفكرة لم تنجح فـي القضاء على بطالة الشباب بل حولتهم إلى مـدينين هـاربين مـن الحكومة.

فردت حماتي:

- ليه يعني انت مبطّل؟... عدوك مـرة تـرمح وراها لحد ما تصيدها. وبلادنا حريمها "قحايب"..

.. أحسست بخجل عندما قالـت كلمـة "قحايـب" فـي حضوري وحضور أخيها، وطرأ على ذهني ما قاله صديقي "مختار الجهيني" عندما طرحـت عليـه فكـرة خطـوبتي لـ "دعاء ":

- بعد عن الناس دي.. دول غوازي؛ وباقيهم ف "سنباط" لسه قاعدين لغاية دلوقتي؛ واللي انت رايح تاخد بتهـا دي، مرة بت كلب، ما يفريش عينها ظـرف، تاخـده بالباع والدراع وتقول لا شفته ولا ريته..!

وعندما همست لـ "برعي هلال" بما قاله "مختـار" رد بعنف:

- ما تسمعش كلام الواد البايظ ده، الجماعة دول أحسـن ناس، والولية ماحدش شاف عليها حاجة وحشـه، ولا سمع عليها كده ولا كده الناس ف حالهم ومؤدبين...

* * *

نقلت الكتب والهدوم في عربية ربع نقل، استأجرتها من صحراء حلوان إلى صحراء المقطم، ونمت ليلتـي سـعيدا بالشقة "التمليك" بعد سبع سنوات نمتها في غرف ضيقة رطبة في أدوار "أرضي وسطوح" شاركني فيها "الجوع" و "العرق" و "الإحباط" شعراء صادقون وصحفيون طوافون على مكاتب الصحف العربية، وأدباء مدعون، ولصوص محترفون.

كنت في حالي، لا أخالط الجيران، ولفـت انتبـاهي أن الدور الثاني فيه امرأة تعيش وحدها، والـدور الثالـث فيـه موظف وزوجته، وبمرور الأيام، عرفت الموظـف واسـمه "منير" يعمل "كاتب" في مستشفى الحسين الجامعي، زارنـي وقدم لي نفسه، وحكى لي لقطات من حياة "العزوبية" وحيـاة الزوجية، و "الكرم" الذي لقيه من أهل زوجته وأثناء الكـلام ألمح – من بعيد – إلـى الآنسـة شـقيقة زوجتـه، تحمـل بكالوريوس التمريض وتعمل في مستشفى السـلام الـدولي بالمعادي؛ وحاول أن يجمع معلومات عني وعـن وظيفتـي و "المطبعة" و "المقالات" و "الباب" الذي أكتب فيه...

انتهت الجلسة – المسائية الأولى – على خيـر، وفـي الجلسة التالية، دخل الأستاذ " منير " في الموضوع مباشرة:

- أنا عندي لك عروسة حلوة.. أخت المدام...

- كان يشرفني يا أستاذ " منير ".. بس أنا مرتبط...

- مين؟... م البلد، ولا من هنا؟

- م البلد، كاتب كتابي وهادخل قريب.

ابتسم، ودخن سيجارة وتكلم عن حرارة الجو، والمتعـة التي أستأثر بها وحدي في الدور السادس، وانصرف، ولـم يكرر الزيارة، وفي المرات التي رأيته واقفًا يدخن أمام شقته لم يكلمني ولم أكلمه واكتفى بنظرات حادة يصـوبها إلـي؛ وعندما سكن "الشيخ ياسر " في الشـقة المجـاورة لشـقتي، وهيمن على مقدرات البلوك وأصبح المسئول عـن النظافـة ولمبات السلم وتركيب الباب الخارجي وجمع التبرعات لبناء "مسجد التوبة" المجاور، لم يكن " منير " يتـدخل أو ينـاقش أو يعترض، فقط يدفع المطلوب ويغلق باب شـقته بهـدوء، وعندما احتل محمد الشناوي – الأستورجي – مدخل العمارة وحوله إلى ورشة – أيضا – لم يعترض...

غاب "منير" مدة طويلة، حتى أنني سألت عنه "الشـيخ ياسر " فقال لي:

- والعياذ با ؛ دخل مستشفى الأمراض العقلية...

بدون إنذار، طلب "حماي" ووالده "سعد" أخو "دعاء" الأصغر منها، في صباح رطب حار، ولم يكن معي سوى جنيه وربع، شعرت – وأنا أسلم عليهما – بالأرض تدور بي فأنا لا أعرف أحدا هنا، أستطيع أن أستلف منه، ولا يجوز أن أستلف من حماي، رحبت بهما ولبست "الجلابية" ونزلت إلى "قُرني" صاحب "عربية الفول" الواقفة في الميدان، واشتريت فولا "وعيش" و "طرشي" والحيرة تملأني.. "أجيب منين فلوس وأضايف دول!"..

أفطرنا، ومع آخر لقمة قال حماي:

- البس هدومك، وخد "سعد" اعمل له " فيش مستعجل عشان تقديم معهد أمناء الشرطة..
- نزلنا أنا و "سعد" تركته في محطة الأتوبيس، واتجهت مباشرة ناحية "قرني" الفلاح الفيومي الذي بدأ حياته في "الغربلة" [1] في حي المغربلين وانتقل إلى هنا بعد انهيار بيته القديم في زلزال ١٩٩٢ وقلت:

([1]) في هذا الحي العريق يتم تجميع " القمح " والفول و "السمسم " وغيره من المحافظات الزراعية بمعرفة تجار كبار، وتتم عملية

- هات خمسة جنيه سلف لحد آخر النهار..

فأعطاني دون أن يلتفت إلي، وبعد أن انتهيتُ من عمل "الفيش والتشبيه " في مصلحة الأدلة الجنائية، ذهبـت إلـى المجلة – و "سعد " معي – واستلفت " مائة جنيه " من زميلي "سامح ".. ودارت عجلة الضيافة، كل صباح أصحو وأشتري البيض والطعمية والفلفل الأخضر والجرجيـر، نفطـر أنـا و "حماي" و "سعد" ونفترق، هما يذهبان إلى معهـد أمنـاء الشرطة في " طرة البلد " – قرب حلوان – وأنا أذهب إلـى المجلة، وفي المساء نلتقي، أشـتري "الجبنـة" و "البـيض" و "البولبيف" وأجهز العشاء..

مسألة النوم لم ترهقني.. "السـرير" خصصـته للسـيد "حماي" وفرشت "البطانية الميري" واللحاف على الأرض ننام عليها أنا و "سعد".. في اليوم الثامن، تكلم "حماي" العزيز:

تنقيته من الحصى والطوب بالغرابيل " المناخل " والعـاملون فـي هذه المهنة كلهم من " الفلاحين " الذين احترفوا في قـراهم مهنـة "القرقرة" التي تعني فصل التبن عن الغلة مقابل أجر عيني، وهـي مهنة عمرها آلاف السنين في مصر، وأصحابها محتقـرون فـي القرى.

- عاوزين حد يتوسط في المعهد ولو بالفلوس أنا جاهز..
- أنا واا ماليش في موضوع "الرشـاوي" و "الداخليـة" والكلام ده!
- أمال صـحفي إزاي.. دا احنـا معتمـدين علـى ا وعليك.!
- لأ.. أنا "صحفي" لكن ماليش علاقة بالشرطة.
- أمال "صحفي" وبس.!
- ع العموم.. عشان خـاطرك، أنـا هنسـأل زملائـي المندوبين في الداخلية وربنا يسهل..

وبالفعل، اصطحبت "سعد" وذهبت إلى زميل في أخبار اليوم" وآخر في "الأخبار" وثالث في "الأهرام".. كان اليـوم حارا، والمهمة ثقيلة"سعد" في منتهى "الغباء" كلامه كله يدور حول "البلد" وأعمامه أبطال المعارك، وأخواله ومغامراته في " طما الثانوية التجارية" حتى أنه حكى لي حكاية لم أفهمهـا في البداية، لكنني فهمتها فيما بعد ولعنت نفسي وكل شيء له علاقة بقصة خطوبتي لأخته ودخولي بيتهم من أصله، قـال "سعد" إنه ركب عربية مع "محمد الجارح" في البلد، وذهـب

معه إلى "الجنينة" البحرية، وأكلا سويا "العنب" و "المناجو ".. وتشاجرا في آخر الليل لأن "الجارح" حاول أن يغتصبه!

اندهشت لثوان، واعتبرتها أكذوبة صغيرة أطلقها شـاب مراهق تافه..؛ ولكن عندما مر يومان، ولم يوافق "سعد" على ذهاب أبيه معه إلى المعهد سألته:

- إنت مش عاوز أبوك يروح معاك المعهد ليه؟!

- عشان دا كشف طبي، ومش هيدخلوه معايه جـوه.. وبعدين أنا عرفت الطريق ومش عاوزه يتعب معايه.. وكلما جلسنا في الليل نحكي؛ اختار "سعد" الدقائق التي كان يغيبها أبوه في دورة المياه وحكـى لـي حكايـة "محمد الجارح" والجنينة، و "العنب"..؛ وأنا لـم أفهـم الهدف من الحكاية، في ليلة، صـحوت مـن نـومي مفزوعا، ويد "سعد" قابضة على عضوي، أزحتُ يده، وارتبكتُ قليلا، وفي الصباح قلت له:

- ابقى نام بعيد من ناحية البلكونة، والفرشة واسعة..
- ليه.. أنا مضايقك؟!
- أبدا بس انت كل ما تتقلب تصحيني..
- قصدك على إيدي؟

- آه..

- أنا كنت صاحي، ماكنتش نايم..

وضحك ضحكة مايعة!

* * *

خمسة عشر يوما مرت، و "حماي" وابنه قاعدين " فوق قلبي" لا أقرأ، لا أكتب، لا شيء سوى عمل "الشاي" وتجهيز "الفطور" و "العشاء" وسماع ثلاث قصص لا يغيرها "حماي" ولا يمل تكرارها..

القصة الأولى تحكي بطولته في حرب الاستنزاف، قبل أن يلتحق بالداخلية في إدارة "المرور" حيث كان يعمل فـي شركة النيل للطرق الصحراوية في وظيفـة " ملاحـظ " – ينطقها " مراقب " – وقرر الرئيس "جمـال عبـد الناصـر" الاستعانة بشركات القطاع العام في بناء " دشم الطـائرات " تحت إشراف القوات الجوية والدفاع الجوي، وبناء " حـائط الصواريخ " الشهير في عهد وزير الحربية الفريق " محمـد فوزي" وكان "حماي" يرى بعينه كل ساعة وكل يوم الطيران الإسرائيلي يقصف العمـال والجنـود والمركبـات، ويهـدد المجهود الذي ينفقه عمال الشركات والمهندسـون، والقصـة

الثانية ترصد حياته في " مصر القديمة " – أو كما يسـميها " مصـر عتيقـة " – وتـتلخص فـي نصـيحة " حمـاه " عبد اللطيف المصري له بضرورة ترك بلادنا " بنجا" والإقامة فـي " مصـر" منعـا للمشـاكل المتفجـرة يوميـا بـين حماتي – الزوجة الشابة في ذلك الوقت – وإخوة "حسب ا " وأخواته – وقبول "حسب ا " الإقامة، ثم إقدام حماتي علـى المغامرة بالذهاب إلى سوق ساحل مصر القديمة، ثم غيابهـا مدة أسبوع، وبحثه عنها في المستشفيات وأقسام الشرطة إلى أن عثر عليها بمساعدة " لواء " في الداخلية تربطـه صـلة القرابة بأحد مديري الأعمال فـي شـركة النيـل للطـرق الصحراوية، ثم إنجابه بنتًا – أسماها " سـعدية " – ماتـت ودفنها في مقابر البساتين واعتياده الوقـوف علـى قبرهـا وقراءة الفاتحة وتوزيع الصدقة على روحها منذ عام ١٩٦٩ وإلى الآن.!

القصة الثالثة، قصة مزعجة، تخص المرحلة التي دخل فيها خصومة مع أخيه " أبو العلا " حـول مسـاحة " نـص قيراط مباني " انتهت بتنازله عنها حقنًا للدماء وإكراما لعضم التربة.!

وعندما يئس "حماي" مـن ردود أفعـالي، وسـكوتي، وتجاهلي.. دخل مرحلة طرح الأسئلة.. سـألني مـرة عـن "القمر" هل هو بعيد أم قريب، لما جلسنا في البلكونة وكـان "القمر" بدرا يغمر نوره الصحراء المحيطـة، ولـم أسـتطع إقناعه بالمعلومات التي أعرفها عن الفروق الواضـحة بـين "النجم" و "الكواكب" والإضاءة بالانعكاس، والسنة الضـوئية، والأساطير المحيطة بالقمر لدى المصريين القدماء والعرب، والصينيين، وعندما أحس أنه دخل "حارة سد ".. فجأة نقلنـي بسؤال مباغت:

- لو الواحد حب يعمل "كُشك" هنا فِ المقطم، يكسب له كام جنيه في اليوم؟

نظرت إليه والدهشة المخلوطة بالإحباط والقرف تمـلأ وجهي وقلت له:

- ا أعلم.. حاجة ما نعرفهاش، مانتكلمش فيها..

* * *

أهم سبب جعلني أفكر جديا في الطلاق، شخصية "دعاء" فهي ضعيفة، وساذجة، وخلال العامين اللذين قضيتهما عاقدا قراني عليها، كرهـت البيـت وكرهـت أمهـا، وأخوالهـا

وأعمامها..؛ وفي الفترة الأخيرة، رأيـت رجـالا كثيـرين يدخلون في غياب أبيها "حسب ا " وسمعت حكايات – مـن وعن – نسايبي، وأخيرا قررت "الاستفادة" بحكاية سمعتها من حماتي نفسها، عن الطريقة التي طلقت بها – عمة دعـاء – من زوجها السابق، قالت لي إن سلفتها "هانم" ضحك عليهـا زوجها، وأخذها من يدها إلى عيادة طبيب "أمـراض نسـا" وختمها وبصمها على ورقة على أساس أنها موافقة ضرورية منها على إجراء العملية الجراحية، وعندما طلقهـا، أقامـت دعوى "نفقة" و "قايمة" وخسرت القضية، لأنه تبين للقاضي، أن "هانم" وقعت على "مخالصة" تفيد بحصولها علـى كافـة حقوقها وأن زوجها غير مدان أو مطالب بشيء!

- بكره الصبح هنروحوا "سوهاج" أنا وأنتي..
- نقول لأمي الأول يمكن ما توافقش..
- لازم تخليها توافق، عشان أنا نفسي نقعد وأنا وأنتـي وحدنا..

- وأنا وا نفسي نقعد معاك..

ثم قالت "دعاء" بلهفة:

- أنا هنقول لها إنـي عـاوزه نسـحب ورق "المدينـة الجامعية" بكره، ومش هتقول لأ..

- طب إحنا دلوقتي مش مكتوب كتابنـا ، وقـدام ربنـا والناس متجوزين؟

- إيوه بس هيه تخاف من كلام الناس، ما تعولش الهـم ونا ليه طريقه معاها..

* * *

نمت الليلة على "الكنبة" و "دعاء" نامت مع أمها، وفـي الصباح خرجنا، وفي نادي "المهندسين" جلسنا، طلبـت لهـا عصير "جوافة" وقلت:

- إيه رأيك فِ وظيفة تاخدي منها ألف جنيه كل شهر؟

- يا سلام يا عباس.. دا يوم المنَى..

- ساهله، أنا دلوقتي نشتري "طلب توظيف" م "البوسطة" وانتي تمضي عليه والباقي على ا ..

ضحكت وأنا أقول:

- يا "دعاء" بالذمة والدين إنتي حبتيني؟

- وا العظيم حبيتك، والعلمان ربنا..

- وانتي ف الكلية، ما عشتيش قصة حـب مـع واحـد زميلك؟

- إنت عايز الحق؟!

- طبعا.. أمال عايز إيه؟

- ومش هتزعل؟!

- نَزعل ليه؟. قولي كل حاجة.. ولا يهمك..

- بس تحلف لي ع المصحف إن الكلام ده ما يطلعـش لحد..

- والمصحف الكلام ده ما هيطلع مني لحد..

- ساعة كنت فِ الثانوية، حبني واحد قريبك.!

- مين من قرايبي؟!

- الأستاذ "برعي"..

- دا كبير عنك فِ السن، ثانيا دا متجوز أختي.!

- طب أنا كنت نعرف إنك هتخطبني؟!.. المهـم اللـي حصل، ودي حاجة راحت لحالها وأنا نسيتها، بس أنـا مش عاوزه نزعلك..

- آه.. حبك ازاي؟!

- أمي كانت عاملة عملية "الزايدة" ف " أسيوط" وبعدين جه زارها ف المستشفى وقعد يغازلني، ولما نقلناهـا البيت كان ييجي عندنا ويسهر، وبعدين حب يمد إيده، شتمته والموضوع خاص على كده.!

- ومين تاني؟!

- ما فيش تاني..

- بس أنا حاسس إن فيه حد تاني..

- وا العظيم ما فيه حد.. بس الواد "عمرو" ولد "العمدة" عاكسني مرة ونا جاية م الكلية، وركب معاية العربية لحد "سوهاج" وغلّس شويه..

- وبعدين عطاكي " جواب ".. وقال لك باحبك، واتصل بالتليفون، وخد منك بوسه..!

- ومالك زعلان ليه؟.. ولو كان ده حصل.. مش دا كان قبل ما تخطبني، يبقى أنا ماضحكتش عليك، وماكدبتش عليك.!

* * *

وصلنا "بنجا" وقدام بيت نسايبي، ودعت "دعـاء" علـى أمل اللقاء في مساء نفس اليوم و "الورقـات الأربـع" التـي

تحمل توقيعها في جيبي، ورقة "طلب التوظيف" والورقـات البيض الثلاث الأخرى؛ كنت قد حلّفتُ " دعاء " بحبنا علـى ألا تقول لأمها، أو أبيها أو أي أحد تفاصيل ما جـرى فـي النادي، ووعدتها أن يكون كلامها عن "برعي هلال" وعمرو سرا لن يعرفه أحد مهما حدث، وقلت لها إن " عينين النـاس وحشه" لو عرفوا حكاية الوظيفة و "الألف جنيه" مرتب.!

سألتني "عدلية" :

- اتفسحتوا النهاردة انت والعروسة؟

- اتفسحنا.. آخر حلاوة.!

- أمال مش مبسوط يعني..!

- أبدا.. تعبان م المشوار.. هنخش ننام لي شويه..

* * *

بعد خمسة شهور من سفري إلـى "القـاهرة" اتصـلت "دعاء":

- عباس إنت واحشني خالص..

- وبعدين؟.. إنتي متصله ليه؟

- مش انت خطيبي وكاتب عليه وحبيبي؟!

- انسي الحكاية دي.. أنا خلاص، هنطلقك..

- إمتى؟!

- لما تدوني "القايمة" اللي أنا ماضي عليهـا، وتـدوني الشّبكة.. قولي الكلام ده لأبوكي وأمك وما تتصـليش تاني..

وقفلت "الخط" ومضى اليوم عاديا، ومن بعده أيام، إلـى أن فوجئت بالمستشار "أيمن محمود السايح" رئـيس محكمـة "قنا" الجزئية، قريب حماتي، يقتحم مقر المجلـة دون سـابق موعد " باشا " بكل ما تحوي الكلمة فـي الخيـال الشـعبي، أسمر، شعره ناعم، بدلة كاملة يرتديها وكرافته جعلت منـه صورة طبق الأصل من المرحوم والده "محمود السايح" وكيل نيابة جرجا في سنوات السبعينيات – مات في ١٩٧٩ – بعد أن حقق معجزة، فحياته بدأت مع أمـه " حفيظـة " بائعـة القصب التي مات زوجها السايح – صياد السمك – ترك لها " محمود" وحيدا، فعلمته حتى حصل على شـهادة " دبلـوم المعلمين" وعمل مدرسا بمدرسة "المدمر" الابتدائية المشتركة؛ وبمزيد من الاجتهاد، اشترى قطعة أرض، بنى عليها بيتًـا، وتزوج، وأنجب " أيمن" وأربع بنات؛ ونما طموحـه فرشـح نفسه لانتخابات " مجلس الأمة " في عهد " عبـد الناصـر"

وكان رمزه "السيارة" لكنه قضى فتـرة الدعايـة الانتخابيـة طوافًا في القرى على ظهر " حمارة " أعارهـا إيـاه خالـه "عبد اللطيف المصري" ومن باب الفكاهة كان يقول للناس:

- أنا ما معاييش عربية، وآديني اترشحت وربنا عطاني عربية.

وسقط في انتخابات المجالس، لكنـه لـم يتوقـف عـن الطموح، التحق بالمدرسـة الثانويـة العامـة وفـق نظـام "الانتساب" ثم التحق بكلية "الحقوق" وتقدم لمسابقة "معـاوني النيابة" وعندما جاء اليوم المحتوم لاستلامه وظيفة "معـاون نيابة جرجا" لم يكن يملك غير "قميص وبنطلـون" وبمـا أن الوظيفة تستلزم ارتداءه بدلة كاملة "وكرافته" فلم يجد سـوى "عبد اللطيف المصري" [١] ليقترض منه ثمن قطعة القمـاش وأجرة الترزي؛ وتم له ما أراد، وانتقلت معه أسـرته إلـى استراحة "وزارة العدل" في "جرجا" والتحق " أيمن " بكليـة الحقوق وحصل على تقدير مقبول في السنة النهائيـة ولأنـه ابن "محمود السايح " رئيس النيابة، تم تعيينـه فـي وظيفـة

---

(١) كان عضوا في لجنة " العشرين " بالاتحاد الاشتراكي العربي " في الستينيات ومات بسرطان الكبد.

"معاون نيابة" رغم ضعف المجموع مستفيدا بالاستثناء الـذي حدده القانون.!

استقبلته وبعد دقائق طلب مني النزول لنجلس في مكان بعيد عن جو "المجلة" و "الدوشة" وأنا أخاطبه بلقب "سـعادة المستشار" لكن صورة أسنان أبيه الراحل – السـوداء مـن تدخينه "دخان اللّف" – وصورة جدته "حفيظة" وهي حافية في شوارع "بنجا" وراء "الجمل" الذي يحمل تجارتها من " عيدان القصب" وصورته هو شخصيا وهو يدعو أهـالي " بنجـا " للتبرع بالأرض لبناء معهد أزهري، لم تفارق عينـي، لكـن الذي أمامي – الآن – هو " أيمن السايح " رئيس محكمة "قنا" الجزئية.

- تحت أمرك يا سعادة المستشار..

- عاوزين نخلّص موضوع "دعاء"..

- ماشي.. همه جاهزين؟

- أنا قصدي إنك تتجوز، وأي مشـكلة ممكـن نحلهـا بهدوء..

- يا باشا مافيش مشكلة.. يدوني "القايمة" و "الدهب" ونَا نطلق فورا..

- يعني دا آخر كلام عندك؟!

- للأسف آه، ودي مسألة قسمة ونصيب..

أنا عارف إنها قسمة ونصـيب.. ع العمـوم أنـا موجـود فِ "القاهرة" أسبوع كمان، وقبل ما أسـافر البلـد، هـارد عليك..

- وا إحنا متشكرين يا باشا.. وخيرك علينا..

وبعد أسبوع تم الطلاق في حضور سـعادة المستشـار "أيمن محمود السايح " أو " أيمن السايح" كما هو مدون فـي "الكارت" الذي أعطاه لي وهو منصرف ولم ينس أن يقـول لي:

- أنا تعلمت حاجة من المرحوم "بابا" إن الواحد ماينساش أصله..

وأنا مبتسما قلت له:

- أنا يا باشا عارف إنك أصيل.. طـول عمـرك ابـن أصول، وأنا سبت "الشبكة" عشان خاطرك..

- لأ مش عشان خاطري، عشان تتأدب.. لما تخش البيوت المحترمة، تبقى عارف إن الكلام فِ الجواز مش لعب عيال، ولو أنا مش مراعي إن إحنا بلديات، أنا كنت حبستك.. وانت فاهم كلامي طبعا..

- ع العموم يا باشا، أنا مش واحد مِ الشارع، أنا "صحفي" وعندي علاقات في وزارة العدل ومجلس القضاء الأعلى، وأعرف قضاة وممكن أخدم.!

فابتسم، واضطربت يده وهو يشعل سيجارته "الروثمان" وأنا اتجهت إلى محطة القطار بداخلي فرحة تشبه فرحة العائد إلى وطنه، أو المسجون الذي حصل على حريته أو المتهم الذي حصل على البراءة.. وعدت إلى شقتي في "المقطم" نمت كثيرا، وقرأت كثيرا، وسهرت في بارات وسط البلد، وضحكت كثيرا قبل أن أتلقى من مأذون "بنْجا" ورقة مختومة بشعار الجمهورية تحمل عنوان "إشهار طلاق".

- ٤ -

رأيت "معتصم الفولي" أول مرة في بيت "حميد" قال لي إنه من " آل الفولي " في "المراغة" وإنه من الفـرع الفقيـر، ولا تربطه علاقة مودة بعمه عضو "مجلـس النـواب" ثـم "مجلس الأمة " السيد "عبد المولى الفولي " تـاجر السـلاح، مشعل حرائق الثأر في القرى، تاجر الانتخابات، وفي عـام ١٩٨٤ تسبب في " مجزرة" لأن وزارة الداخلية أعلنت فـوز مرشح "حزب الوفد" – عبد العـال النصـيري – وسـقوط "عبد المولى" ركب "النصيري " حصانه وحوله أقاربه وفرقة الطبل البلدي، وهاصت "المراغة" وانطلقت زخات البنـادق، وبعد ساعة؛ جاء تصـحيح مـن "الداخليـة" يقـول بفـوز "عبد المولى" – مرشح الحزب الوطني – وسقوط "النصيري" واشتعلت النار، وسقط القتلى، وطاف "الفولي" في القرى يعلن أنه لن تقوم قائمة للنصيري أو غيره؛ وتـم إعـلان حالـة الحرب.. كتائب "عائلة الفولي " مسلحة بالبنـادق، وكتائـب "عائلة النصيري" كذلك، وأبو "معتصم" الفقير الذي يحـرس واحدة من "حدائق الفاكهة" التي يملكها ابن عمه "سيادة النائب

المحترم" قتل اثنين من عائلة "النصـيري" وأصـبح "دمـه" مطلوبا، و "معتصم" الشيوعي الشاعر مرهف الحس، لم يجد وسيلة غير الانتقال إلى "الإسكندرية" هناك عمل مدرسا للغة العربية في مدرسة " باحثة البادية " بمحرم بك، و "حميـد " دبر له السكن من خلال " رفاق " سكندريين، وفـي إحـدى المهام الحزبية، لم أجد مكانًا أبيت فيه – آمنًا علـى الأوراق التي بحوزتي – غير ١٥ شارع البسطامي – ميدان محطـة مصر – حيث يقيم " معتصم " في غرفـة علـى السـطوح، سكرنا وحكينا عن البلد، والحزب، والأسباب التـي جعلتـه ينتقل إلى "الإسكندرية" رغم أن فرصته في "القاهرة " كانـت أفضل في كل شيء، في "الفلوس" في النشاط الحزبي، فـي تأمين نفسه وحياته بعيدا عن خصوم عائلته، وفي الصـباح أفطرنا وجلسنا ندخن ونشرب الشاي، ثـم فوجئـت بـامرأة قصيرة، معها "ولد" لا تزيد سنّه على سن تلميذ في الإعدادية، محجبة، صوتها حاد وهـي تقـول "سـباح الخيـر.. يـاه يا معتسم.. مش تقول لي عندك ديوف؟!" سلمت علي؛ وبعد لحظات قال "معتصم":

- إلبس هدومك عشان هننزل ع القهوة تحت..

سألته:

- مين دي يا معتصم؟
- واحدة على باب ا ، بتسترزق، وابنها اللي شـفته ده تلميذ عندي..
- تلميذ.. ولا هيه اللي تلميذه!
- آه.. زي ما فهمت بالظبط..
- إنت بتناضل معاها "على طريقتك" برضه؟!
- أقوى م "النضال" اللي إنت عارفه..
- يعني إيه؟
- يعني دي "بروليتاريا" أقرب لنا م "البرجوازية" وتحت إيدينا..
- بتنضف لك الأوضة يعيني وتديها فلوس؟
- آه، وليها مهمة تانية.. بتقدم لي خدمـة، وباقـدم لهـا خدمة..
- زي إيه ولا مؤاخذه!
- يعني هيه أرملة ونا عازب .. والباقي إنـت فاهمـه، ولا أشرح لك.!
- لأ.. اشرح لي..

- يعني بالعربي كده "العِدة " عندها بتسخن، وأنا بس اللي أقدر ابردها..
- بس كده مش حلو عشانك.. لو كان الموضوع تاعبـك للدرجة دي "اتجوز"..
- يا أخ "عباس" بلاش شغل "الرومانسية" ده، إحنـا لنـا احتياجات بيولوجية بنشبعها وخلاص.. هاتجوز منـين ولا المرتب مكفي حتى تمن السجاير؟!!
- أنا وجهة نظري إنك تتجوز " عزة " أخت " طاهر ".. مش لِسه بتحبوا بعض؟
- لا.. كل سنة وانت طيب، دا موضوع قـديم.. كفايـة عشر سنين وأنا فِ قراية وكتابة "وصـراع طبقـي" و "طبقة عاملة" وخرا الكلاب والزفت، وكلها أشـكال واطية..
- اسمح لي يا "معتصم": اللهجة دي، لهجة واحد محبط، واضح إن اليقين عندك اتهز.!
- أحا يا يقين.. وكما أحا.. يقين إيه يا سي " عبـاس ". ما خلاص.. إنت لسه ف الوهم؟!

- ع العموم دي مواقفك وإنت حر.. بس أنا شايف إنـك اتسرعت فِ حكاية " عزة " بعد اللي شـفته، واللـي سمعته منك.!

- مع احترامي ليك.. " عـزة " كانـت وهـم.. وانـت حضرتك يعني ولا مؤاخذة ما تعرفش إسكندرية قدي.. دي مش " سوهاج ".. " عزة " تعرف طوب الأرض، وجوز أمها "الصول" ابن الوسخة هـو اللـي فتحهـا، بوظها، وأمها "المعرسة" راحت رقعتها وشيلتها للـواد بتاع "الجزم" اللي ف " مصر ".. فما تقوليش "عـزة" ومش "عزة".

- ده كلام ما فيش دليل عليه.. إنت بس اللي محبط ومش بتاع مسئولية.!

- شوف يا "عباس" أنا اللي عرفته فِ "الماركسية" إنـت ما تعرفش نُصه، واللي استحملته وعشتُه فِ الصـعيد اللي زيك ما يستحملش ربعه.. فمافيش داعـي تزايـد عليه فِ حاجة خاصة جدا زي دي!

- واللي عرفني بـ " طاهر " مش إنت؟، واللي دخلنـي بيته.. مش إنت؟!.. ولا حد غيرك؟!.. والجماعة اللي

هنا " زمايلنا " مش إنت اللي عرفتني بيهم وقلت لـي عنهم قصايد شعر ف الوعي والتضحية والنضال.!

- معاك حق.. بس الأيام عرفتني الناس على حقيقتهـا.. واسمع الكلام الجديد.. " طاهر خاف " قواد وابن قحبة وبتاع مخدرات، والأخ " حسام درديـر " معـرص، وفوزية مراته قحبة، وكلهم صيع ومخبرين.. خلاص ارتحت ولا أقول اك تاني؟!

- واضح إن "الحوار" معـاك مـش هينفـع.. دلوقـت ع الأقل.!

- عليك نور، آدي انت جبت الخلاصـة.. وهاقولهالـك بالمفتشر: ما فيش حاجة اسمها " فلاحين" و "عمـال" ولا بتاع.. بعيد عن الجيش مافيش حاجة هتتغير، كله كلام فاضي وتضييع وقت..

- أفهم من كلامك ده إنّك بقيت مؤمن بفكرة "الانقلاب"؟!

- ما فيش حل غيره ينفع فِ العالم التالـت.. النهـارده الناس جعانه، وبتتهان وبتتضرب بالجزمـة، وبعـدين الواحد فيهم يخش يضرب الركعتين ويسفح طبق الفول المتين، وينام مع مراتُه، ولا كأن فيه حاجة حصلت.!

* * *

.. فوجئت به في المجلة، ومع آنسة رأسها ضخم، وأنفها ضخم وعيناها واسعتان، تضع "إشارب" أقل حجما واتساعا من "الحجاب" و "الخمار" المعروف، وبعد أن جلسا وشربا "العصير" والشاي، أخذني " معتصم " من يدي، وهو يقول:

- عاوزك فِ كلمة..
- تحت أمرك..
- عاوز الأخ زميلكم اللي بيعمل الباب بتاع "أنت والنجوم"..
- عايز تعرف "البخت" يعني ولا إيه؟!
- لأ.. "فتحية" بتعتقد ف الحاجات دي وانا عاوز أريحها..
- "فتحية" دي صيدة ولا زميلتك؟!
- هاخطبها، بنت جدعة وغلبانة، ناسها طيبين، ساكنين ف "الحضرة "..
- وإيه دخل "النجوم" ف حكايتك دي؟!

- بالعربي كده هيه من برج "التور" وعاوز ابعـت لهـا رسايل من خلال مجلتكم عشان هيه بتقراها بانتظام..
- هيه خريجة جامعة ولا..
- خريجة كلية "التربية" قسم طبيعـة وكيميـا وزميلتـي فِ المدرسة.. بس بتحب الفن والفنانين، وبتهتم بالباب بتاع " انت والنجوم" وبتشتري الكتب بتاعة " شـندي الفلكي" و "السيد الألوسي" و "أم عصام" بتاعة مجلـة "الموعد".
- والمطلوب يا معتصم بيه؟!
- نتعرف على زميلك اللي بيعمل الباب، وأنا هادي لـه اللي عاوزها تقراه ينشر كل أسـبوع جـزء، لغايـة ما نتمم الجوازة وبعد كده شكرا..
- عشان تطمن خالص.. أنا اللي باعمل الباب ده..
- خلاص؛ كده العملية ف بيتها، ودي خدمـة لأخـوك تعملها ولك جزيل الشكر..

أعطاني ورقة مكتوب فيها "قصة حب تنشـأ بينـك وبـين الجوزاء" "الجوزاء يدخر لك سعادة بالغة" لا تجعل الجوزاء يغضب منك.. والقضية التي تشغلك تحل قريبا لصـالحك"،

"حادث سعيد في محيط الأسرة". وأصبحت في كل أسبوع، أحرر باب "أنت والنجوم" أضع عبارة من هذه العبارات في خانة برج "الثور" أو يتصل بي تليفونيا ويملي علي العبارة التي يريد أن تقرأها خطيبته " فتحية " الآنسة التي تعيش مع أمها وأختها في إحدى حواري "الحضرة" وعندما سـافرت إلى الإسكندرية، كان حريصا على أن أذهب معه إلى بيـت أسرتها، رأيت أمها، امرأة بيضاء، سمينة جدا شعرها أبيض قصير، تضع نظارة طبية على عينيها، ساقاها تشبهان ساقي "الفيل" تتكلم بحزن شديد وجو البيت والإضاءة أغرقاني في حالة كآبة..

وأنا جالس على الكنبة البلدي في الصالة، استأذن "معتصـم" وغاب حوالي "ساعة" والسيدة "أم فتحية " بين الحين والآخر تحييني:

- أهلا وسهلا يا ابني.. نورت إسكندرية.. وازاي الأهل فِ "الصعيد" مش كويسين؟

وجاء " معتصم " يضحك ضـحكة بهـا "خبـث" والعرق يتصبب من جبهته..

- رحت وين؟!

- أبدا.. دخلت نمت شويه..
- طب والماطوع برده ده ماليهش حق عندك؟.. ممكـن نمشي ولا لسه وراك حاجة؟!
- لأ أبدا.. صافحت السيدة "أم فتحية" وقالت لمعتصم:
- الغدا عندنا بكره.. اعمل حسابك عشان خـاطر ابـن عمك أول مرة يخش عندنا.. هيقول علينا إيه؟..

* * *

- عرفتها إزاي دي يا "معتصم"؟
- عادي، زي أي واحد ف الـدنيا.. كلمـة، وضـحكة، خرجنا وتفحسنا.. اكتشفت إنها الزوجة المناسبة ليه..
- بس دي فِ الضياع.. إيه حكاية "النجوم" والخرافـات دي.. رغم إنها خريجة طبيعة وكيميا.!
- إنت مش واخد بالك.. دي هتبقى زوجـة ميـه ميـه، و "الخرافات "اللي بتقول عليها دي موجودة عند الناس كلها؛ والظروف اللي عايشة فيهـا دي، بالنسـبة لـي كويسه جدا.. يعني دي هتفضل طول العمر شـايلاني فوق دماغها.. أمها اللي انـت شـوفتها دي، جالهـا "الروماتيزم " مـن المسـح فِ البيـوت والغسـيل،

أبو فتحية مات ساب " فتحية" واختها، وكـان راجـل أرزقي، أصلا همه م "المنوفية " قعدوا في إسـكندرية، اشتروا البيت ده، والبنتـين اتعلمـوا فـي الجامعـة، واخواتهم إللي من أبوهم، كل واحد فِ حاله..

- اتفقتوا ولا لسه؟

- اتفقنا، هاجيب "دبلتين" وسلسلة، ونعمل " كتب كتـاب" والدخلة مع بعض.. وهنعيش مع أمها لحد مـا نـدبر العفش والشقة...

- تصدق إن الجواز هنا أسهل من عندنا؟!

- بكتير، دنا فكرت أجوزك، هنا..

- وا أنا موافق.. بس أنا ما نعرفش لا بنات ولا أسر!

- سـاهله الحكايـة، أسـهل ممـا تتصـور.. يـوم فرحي – طبعا هتكون موجود – تشاور ع البنت اللي تعجبك، وليك عليه أجوزها لـك فـورا بعـدين لازم تعرف إن إسكندرية فيها ميزة حلوة.. البنـت بتجيـب نُص العفش.. لو انت جبت "أنتريه" و "أوضة نوم" هيه تجيب "الأجهزة" و "المطبخ" و "التنجيد" حتى "البيجامة"

هيه اللي بتشتريها.. وبعدين بنات هنا بتوع عيشـه.. وبيقدروا الراجل كويس..

- تقصد إيه بتقدير الراجل يا أخ معتصم؟!!

- زي ما انت فاهم بالظبط..

ضحكنا بصوت عال وركبنـا "التـرام " إلـى شـارع "البسطامي " بميدان محطة مصر..

* * *

بناء على اتفاق " معتصم " معي، ذهبت إليه وهو جالس في "الكوشة" وقلت له:

- البنت اللي قاعدة ورا هناك دي.. عاجباني جدا..

فضحك بصوت عال:

- يا ابن الكلب.. مالقيتش غير دي مـن وسـط ميـت واحدة؟!!

- إنت قلت اختار، وأنا اخترت..

ثم ناداها:

- سهى.. تعالى هنا يا حبيبتي..

فجاءت تخطر كالفرس، همس في أذنها فابتسمت وقـال لها:

- سلمي يا سهى.. د ا "عباس" ابن عمي..

انتهت حفلة الخطوبة ورجعنا إلى أوضة "معتصم" ومرة أخرى فتح الموضوع":

- يعني يا عباس هتفضل عبيط لحد إمتى؟!
- عبيط عشان البت عجبتني؟.
- آه.. هاقولك حكايتها، وبكره نروح عنـدهم البيـت.. البت دي أبوها مـن "العـراق" كـان بيـدرس هنـا ف "الأكاديمية البحرية" إتعرف علـى أمهـا؛ كانـت بتشتغل "تومرجية" ف مستشفى "المواساة" اتجوزهـا، خلفت منه " سهى" وسافر.. ولهم شـقة فـي شـارع "الإسكندراني" ف "محرم بك"، وبعدين – يـا حمـار يا متخاف – دي لسه عيله في "تانيـة ثـانوي" كنـت بادرس لها ف "إعدادي" ..

في الدور الخامس من عمارة في شارع "الإسـكندراني" جلست أنا "ومعتصم" في شقة تـدل علـى "وسـطية" حالـة أصحابها، التليفزيون، والكنب البلدي والنظافـة، والأم التـي

تكرمش وجهها بفعل الزمن، وتضع علـى رأسـها طاقيـة مخرمة من الصوف، وحالة الهدوء، والبراويز التي تحمـل آيات من القرآن، سلم معتصم واقتحم "أوضة" وعاد "وسهى" محمولة على يديه، وهي تحاول التخلص منه:

- سيبني يا "معتصم" بقى.. أنا عاوزه أنام. تعبانه والنبي، والنبي..

وأمها نظرت إلي وقالت:

- سهى دي مربيها الأستاذ "معتصم".. كان هوه الأسـتاذ بتاعها ف إعدادي..

- ٥ -

زهقت من بقائي وحيدا في شقة المقطم، وزهقـت مـن "الشيخ ياسر" الذي فرض نفسه وصيا على البلـوك " ١٧٤ " مدخل " أ " بمساكن الإسـكندرية، وفشـلت فـي اسـتهلاك الساعات في القراءة وسماع "الراديو" والجلوس في البلكونة، وفشلت في الاستفادة بوجودي في منطقة "صـبحي حسـين" المعروفة عند – الجماهير " – بأنها منطقة "التحرر الجنسي" فكلما سألني أحد عن المكان الذي أسكن فيه قلـت "المقطـم" "صبحي حسين" وانفجرت أسارير السائل وقال:

- بختك يا عم.. النسوان هناك كلها ضرب.!

.. وأنا هنا، لا أستطيع أن أتواصل مع إحداهن، لأسباب عديدة، أهمها أن هؤلاء اللائي رفعهن ا   درجات " [1] بعـد أن عشن أعمارهن في حـواري "الـدرب الأحمـر" وبـاب الشعرية لهن "لغة خطاب" لا أجيدها، لكن "الرغبة" بـداخلي

---

(1) من النكات التي أطلقت على أهالي الدرب الأحمر وباب الشـعرية نكتة تقول: إن ا   رفعهم درجات حتى أنه أسكنهم جبل المقطم بعد أن كانوا في قاع القاهرة!

تشتعل كلما ذهبت لشراء عيش أو سجاير من دكـان بقالـة أو مخبز؛ وبالمصادفة اكتشفت امرأة سمراء، تخبز "العـيش" وتبيعه في شقتها، مستخدمة "فرن غاز" أعجبت بها، فواظبت على الشراء منها كل يوم، وبدأنا حـوارا لـم يكتمـل، لأن سيجارتها "السوبر" التي أشعلتها وشفطت دخانهـا، جعلتنـي أشعر بخطورة الموقف، هذه ليست امرأة سهلة، إنما الواضح أنها قديمة في "الكار" وفي مرة ثانية جادلهـا أحـد الزبـائن فشخرت:

- نعم نعم يا روح أمك.. بتقول إيه يا مرة؟!!

فحملت الأرغفة وانصرفت آسفًا، حزينًا، لكننـي فـي المرات التي حاورتها فيها، عرفت أن لها زوجا يعمل "سائق عربية نقل" وأنها من "السيدة زينب" وبعد شهر قابلتني فـي السوق:

- يعني مابتجيش تاخد عيش.. زعلت مننا ولا إيه؟

- أبدا يا ست.. مشاغل الدنيا بكره هنيجي..

في "الأسبوع نفسه عدت من المجلة – حوالي السـاعة ١٢ مساء – فرأيتها واقفة أمام "فاترينة" وأمامها طاسة تقلـي فيها "السمين والفِشّة والممبار" وشاب له شعر ناعم وحواجب

"منتوفة" يقلب "السمين" الموجود في الطاسة، اشتريت رغيفًا، وجلست لآكله على كرسي بلاستيك معد لجلـوس الزبـائن، ومن الحوار الذي دار بينها وبين الشاب، عرفت أنه ابنهـا؛ وأن مشروع بيع "السمين والفِشّة" هي التي تموله لصـالحه، حتى يستطيع أن "يكون نفسه" ويتزوج الفتاة المخطوبة لـه، المقيمة في "شارع السد" بحي السيدة زينب...

كان ذلك الرغيف هو أول وآخر رغيف أشتريه من هذه السيدة التي لم أعرف حتى اسمها، لكن محاولاتي لم تتوقف، أعجبت بفتاة سمراء تبيع الدجاج، اشتريت "دجاجة" وسألتني عن الوظيفة والسكن، وحكت لي جانبا من أيامها التي عاشتها في "منشية ناصر" قالت إن "الصخرة "التي هدمت عشـرين بيتًا في العام ١٩٩٣.. أي بعد الزلزال بسنة واحدة. هي التي أجبرت أباها على القعود عاجزا، فقد تكسرت سـاقاه عنـد انهيار البيت ليلا وركب له طبيب العظام "مسامير بلاتين" في مفاصله، بعد أن كان "عربجي" كارو، صحته تهـد الجبـال وأعطتهم "محافظة القاهرة" هذه الشقة تعويضا عـن البيـت الذي انهار، واستغلالا لموقعها في الدور الأرضـي، اتفقـت أختها المطلقة مع أبيها، وانطلقـت مسـيرة مشـروع بيـع

"الدجاج" أمها ذات الوجه الزنجي لم أكلمها، لأنهـا طـوال الوقت واقفة في "البلكونة" والبخار منبعث من "الحلّة" يـداها مشغولتان بنزع "الريش" عن الدجاج المذبوح، لكن نظـرات عينيها الحزينة أعادتني إلى المرحوم "فرج ا العبد" الـذي أحبت ابنته "سميحة" ورغبت في مضاجعتها في بلادتنا بنـاء على حديث جرى بيني وبين صديقي "مختار الجهيني" أشـاد بمؤخرتها وولعها بالجنس، عندما ضـاجعها فـي "الجنينـة" المحيطة بـ "بابور الميه" قبلي البلد...

الحادثة التي قطعت العلاقة بيني وبين "نجـاح" بائعـة الدجاج وقعت أحداثها في شهر رمضـان.. ذهبـت لشـراء دجاجة، أعطيتها "عشرة جنيهات" وضعتها في الدرج وقالت:

- ما الاقيش معاك "مية جنيه" سلف؟

نظرتُ بدهشة فواصلتْ:

- عشان أكمل تمن "الغويشة" واتجوز..
- إنتي اللي هتشتري الغويشة ولا خطيبك!
- أنا.. عشان هوه مش معاه، وأبويا حلف يمين ونا وهوه بنحب بعض وما اقدرش استغنى عنه..
- بيشتغل إيه خطيبك ده؟!

- "نقاش.. بس إنت شايف؛ السوق نايم، وهوه يوم شغال وعشره لأ "..

المحاولة الثالثة لإقامة علاقة مع واحدة مـن "نسـوان المقطم" فشلت فشلا ذريعا، فبعد أسـبوعين مـن "المراقبـة" والضحك تجرأت وسألت امرأة تسكن في الدور الأخير مثلي، لكن في "مدخل ب" من نفس البلوك:

- لو سمحتي الميه مقطوعة وما عنديش ميه..
- تعالَ خد "جركن".. تحت أمرك..

وبالفعل ذهبت وأخذت "الجركن".. وشـكرتها، وبـدون مناسبة قلت لها:

- على فكرة أنا شغّال صحفي فِ مجلة "آخـر سـاعة" وممكن أنشر صور ولادك.
- هيه فين المجلة دي.. هنا ف مصر؟!
- أيوه فِ وسط البلد..
- وبتاخدوا كام ع الصورة؟
- ولا حاجه عشان خاطرك إنتي...
- متشكرة.. لا عاوزه أنشر صورة ولا باحب المجلات.

وبعد أيام، عدت من بار "الكاب دور" بعد ست ساعات

من الشراب المتواصل واللخبطة، شـربت "برانـدي وبيرة وروم" وتفجرت بداخلي رغبة في مضاجعة هذه المرأة، وعلى الفور، نزلت من "التاكسي" صعدت إلى الدور الأخير – كانت الساعة حوالي الثانية صـباحا، طرقت الباب..

- أيوه.. مين ع الباب؟
- أنا " عباس " جاركم.. الصحفي..
- وعاوز إيه دلوقت فِ نص الليل؟!
- عاوز أشرب شاي..
- طب إمشي بدال ما اسرخ وألم عليك الناس..
- طب.. ما تزعليش.. أنا ماشي..

وقضـيت أيامـا أتـوارى منهـا، عينـاي منكسـتان في الأرض، أشعر بعذاب يأكلني؛ والخوف مـن الفضـيحة وسيناريوهات الجرجرة على السلالم، و "العلقة الساخنة" التي سأتلقاها و "البصاق" الذي سيغرق وجهي، و "الشيخ ياسـر" و "الأستاذ منير" وسكان "البلوك" ونظراتهم، وأهلي في البلد، وزملائي في المجلة، وصورتي أمام "الضـابط" أو "وكيـل النيابة" والشتائم، هي كل ما يشغلني ويؤلمني طوال أسـبوع،

وهربا من هذه الحالة قررت السفر إلى "الإسكندرية" ورأيت أن أربعة أيام عند "طاهر خاف" كفيلة بقتل "الموضوع" فـي مهده وإفساد أية وسيلة قد تلجأ إليها الجارة "المغربية" ثقيلـة الأرداف، ناعمة الصوت، اللعنة التي حلت بي فـي البلـوك رقم " ١٧٤ " بالمقطم!

وصلت إلى بيت "طـاهر" فـي "عزبـة المهـاجرين" استقبلتني أمه وأخوه "حوده" سألت عن "طاهر" وعرفت أنـه يراجع بروفات مسرحية كتبها لفرقة مسرح "قصـر ثقافـة الحرية" اصطحبني "حودة " إلى غرفة النوم، خلعت هدومي، واستلقيت على السرير، حزينًا، خائفًا أفكر في "الزواج" بأيـة طريقة وبأي وضع، ومن أي "واحدة"..

- ٦ -

..في الدور الأرضي من بيت "أم طاهر" أسرة عامـل أجري صعيدي، و "أم طاهر" يئست من "المحـاكم" رفعـت القضية تلو الأخرى، ولم تستطع طـرد الصـعيدي العامـل وأسرته؛ وفي أوقات انسجامها النفسي كانت تحكـي قصـة حياتها في " أوضة وصالة " في " محرم بك" وبطولتها فـي مواجهة الزوجة الأولى للمرحوم زوجها "خاف علي ياسين"، تفتح سِجِلّ الكفاح، بعد أن تجعل ملامحهـا مناسـبة للّحـن الحزين:

- أنا كنت عيله وما أعرفشي يعني إيـه جـواز، كـان "أبو طاهر" ا يرحمه، بيجى يزورنا؛ ونا كنت أسـلم عليه وأقول له "يا خالي"..؛ ولما طلبني للجواز، كنت خايفه.. عشت معاه ع الحلوة والمرة لحـد مـا ربنـا افتكره..

ثم تفتح سِجِلّ "الصراع" الذي خاضته ضـد عصـابات الأراضي التي حاولت أن تغتصب قطعة الأرض المقام عليها

البيت أو "العمارة " – كما يحلو لها القـول – فـي عزبـة المهاجرين.

في إحدى زياراتي فوجئت بصورة " أبـيض وأسـود " معلقة على الحائط، ومرآة طويلة عريضة أسـفل الصـورة؛ كانت " أم طاهر " في الصورة فتاة جميلة، واسعة العينـين، طويلة الشعر تستند على صدر رجل في عينيه شراسة، وهي في حالة "غنج" لا تخطئها عين..

"طاهر" قال لي إن الصورة التي علقت حديثًا؛ تأتي في إطار حربه ضد زوج أمه "مصطفى" الذي نسي نفسه وقـال له:

- لو ماتت "أم طاهر" أنا هيبقى لي نصيب في البيت ده..
وكانت "أم طاهر" تحكي عن "المرحوم خلف" – أبـو الولاد " – في حضور زوجها، وتكرر عبارة:
- كان راجل، كان جدع.. كان يشرب ولا عمره سكر..

* * *

خطة التعارف التي دبرتها "أم طاهر" – قامت علـى أن تذهب إلى "شيماء" – صديقة ابنتها "عزة " تخبرها بأن "عزة"

اتصلت من "مصر" وترغب في سماع صوتها، فتأتي وأراها وتراني ويحصل النصيب.. دخلت "شيماء" وقالت:

- السلام عليكم.

ولم تصافحني وسألت عـن تليفـون "عـزة" وبيتهـا وأحوالها؛ وابتسمت "أم طاهر" وهي تقول:

- دا الأستاذ "عباس" زميل طاهر فـي الثقافـة.. مـن الصعيد..

والتفتت إلي:

- إنت منين فِ الصعيد؟

- من سوهاج..

- وشقتك فِ "مصر"؟!

- شقتي فِ المقطم"٦٨ متر" متشطبة وجاهزة..

- والوظيفة؟

- صحفي في مجلة "آخر ساعة" ..

و "شيماء" تستمع، على رأسها طرحة سوداء، ووشـها أبيض، و "العباية السودا" سترت حتى قدميها؛ وكلما نظـرت إليهـــا لمحـــت "الحيـــاء " يغمـــر وجههـــا.. قال " طاهر " فجأة:

- إنت مش بتقـول عنـدك كتـاب فِ المطبعـة، هنـا ف "إسكندرية"؟

- آه.. بس المفروض إنه يطلع خلال شهر..

وقالت "شيماء" بخجل:

- أنا هامشي.. ولو "عـزة " اتصـلت أنـا عنـد بابـا فِ الدكان.. وانصرفت ومعهـا "أم طـاهر ". دقـائق وعادت لتسألني:

- إيه رأيك؟ بنت مافيش زيها..

- جميلة وهادية..

- وعلى فكرة هيه قالت لي إن سـنها "٢٧ سـنة".. زي طلبك.. ولا إيه؟

- زهقت يـا "أم طـاهر" مِ البنـات الصـغيرة واللـي فِ الكليات.. الواحدة منهم شـايفة نفسـها، ومتدلعـة ونفسها فِ شقة ع النيل وعربية وشاب طول بعرض!!

- لأ.. شيماء غير البنات اللي بالـك فيهـا، وبتشـتغل، وبتصلي الفرض بفرضه وأبوها حتّة سكّره.. من يوم ما سكن هنا ما حدث سمع لُه حس..

نمت ليلتي سعيدا، لأنني حققت شروطي فـي زوجـة المستقبل، هادية، حلوة، طويلة، عاملة سنّها معقول يسمح لها بالاستقرار وعدم العبث بالحياة الزوجية، والنظرية التي أؤمن بها علمتني أن العمل هو خالق الإنسان، إذن شيماء تحمـل خصائص نفسية – بحكم كونها عاملة في مصنع – تجعلهـا تعتز بنفسها؛ تعرف قيمة "القـرش " فتضـعه فـي مكانـه الصحيح، جادة في الحياة، و "التدين " يعني أنهـا مسـتقيمة أخلاقيا، أي أنها سوف تحافظ على " شرفي " في غيابي..

* * *

"الرفض" عند "شيماء" أقصر الطرق للوصـول إلـى الراحة، البديل عن الرغبة فـي التعلـيم، تقـول "لا" لأنهـا لا تعرف غيرها،.. كل ما طلبتُه رفضته، حتى انتهت قدرتي على استيعاب هذا الرفض، رغم أنها تحمل شهادة متوسـطة "تعليم صناعي" .. أرسلت إليهـا خطابـا فياضـا بالحـب والمشاعر الرهيبة والرهيفة، ولا أدري لمـاذا ظننـت أنهـا قادرة على الرد علي ردا يجعلني "أنهار" من شدة الوله.!

.. الآن أقول لنفسي: هل كنت أحب "شيماء" فعـلا؟ أم كانت مجرد " شبح" أو هدف في ميدان رماية؟ فالذي فعلتـه

معها، لا ينفع إلا مع فتاة نشأت في بيت فيه على الأقل مكتبة "وبيانو" وقطة "سيامي" وكلب "لولو"، ويبدو أن رغبتي في "النموذج" الأنثوي الناشئ في المدينة في جو رومانسي، وجدران نظيفة وأم تلبس "الكتّافي" جعلني أسقط خيالي – أو الصورة المتخيلة – على فتاة، لا تجيد الكلام بمعناه "الوظيفي" أي التعبير عن الرغبات وإثبات الوجود والمقاومة المعنوية، بل إنها لا تجيد من الكتابة غير "بسم ا الرحمن الرحيم" وبه نستعين والصلاة والسلام على سيدنا محمد؛ وتخطئ في "الإملاء" و "النحو" ولديها نسبة من "الخبث أو على الأقل هي تتصنع "الخبث" وترجو ثماره، وتجيد الخداع كأسلوب وقائي، حتى لو لم يكن بداخلها حساب دقيق لعواقب هذا الخبث!

هي تصحو كل صباح، تصلي وتبوس أباها وأمها وأختها وأخاها النائمين، وتلبس الحجاب، والبنطلون الطويل الواسع، ولا تستجيب لمعاكسات الشباب، تركب "المعدية" ثم الميكروباص إلى "الحضرة" حيث مقر شركة الملابس التي تعمل فيها، وتقابل زميلاتها، وتقضي ساعات العمل اليومي، وتعود لتصلي الظهر أو العصر وتخرط السلطة، وتصمت

كلما كنت عندهم في زيارة، حتى أنني ظننت أنها "رزينـة" تعرف متى تتكلم ومتى تسكت، وصدقت أنهـا "هديـة مـن السما" لواحد مثلي، لم يغْضِب والديه ولم يسرق ولم يقتل!!

.. من "المقطم" اتصلت بها لأنهـا خطيبتـي، ولأنهـا وحشتني. ولأنني لا أريد أبدو في صـورة الرجـل الـذي يتجاهل خطيبته التي لها حق عليه!

قلت لها – بعد الدقائق الأولى – التي اسـتغرقتها فـي السؤال عن صحتها والتأكيد على أهميتها في حياتي..

- إنتي ليه دايما لابسه بنطلون جينز؟

فقالت:

- عشان أنا باحب كده..

- طب إيه رأيك أنا عاوزك تلبسي جلابيه!

- لأ.. ماباحبهاش..

- هتحبيها.. عشان أنا بحبها.

- لأ..

.. المهم، انتهـت المكالمـة مزعجـة، مؤلمـة، أنـا الرومانسي، الذي كتب لها "جواب" يفيض بالصور الشعرية، لا أساوي عندها شيئًا، حتى أنها ترفض الاسـتجابة لطلـب

بسيط، هو لو لبست "الجلابية" ستكون أجمل، لكـن عقيـدة "الرفض" عندها كانت أقوى..

.. في ذات الليلة شربت "عرقي سوداني" أنا وأصدقائي، ومن تليفون الصديق الذي قضينا الليلة في ضيافته، اتصـلتُ مرة أخرى، وطلبت من "شيماء" نفس الطلب، وردت علـي نفس الرد "لأ.. لأ.. يعني لأ..".

ذهبت إلى المجلة وأنا – كما يقال – في حالة "سكْر بين" و "عكننة بينة".. وحزن بين.!

اليوم – بالمصادفة – أول الشهر، الصـراف موجـود والزملاء محتشدون.. والقدر لعب لعبته، تشاء الظـروف أن التقي الزميل " بهاء الدين " – وهذا لا علاقة لـه بالكاتـب الكبير "أحمد بهاء الدين " - بل إنه النقيض تماما، هو جاهل، التحق بالمجلة بالتزوير والرشوة، يرتدي دائما بدلة كاملـة، من يراه من إخواننا القرويين يظن أنه مثقف كبير أو موظف مهم.. لكن أمثالي يكرهون هذا النموذج الجاهل، كلمـة فـي كلمة – وأنا سكران – وقعت المعركة، وضربت "بهاء الدين" بالحذاء والكف وسماعة التليفون، وزملائي حاشوني عنـه، ونزلت إلى وسط البلد، شربت "بيرة" و "براندي" وتشـاجرت

مع مراهق متشرد وماسح أحذية – عرفت أنه يمارس الشذوذ مع الأجانب مقابل فلوس – وتشاجرت مع رجل كان يجلس بجواري هو وزوجته، لأنه لم يطق سماع الألفاظ البذيئة التي كنت أطلقها بنصف وعي.

صديق طيب وصل حاليا إلى منصب رئيس تحرير جريدة إقليمية واشترى نصف فدان وشقة في عاصمة الإقليم أخذني من يدي إلى الشقة التي يستأجرها مع زميل آخر، في ميدان "عبده باشا" بالعباسية، نمت الليلة بعد أن دخلنا مطعم كباب، وأكلنا " كيلو" وفي "المقطم " اشتريت " ملوحة" وألقيت قشرها وأوراق البصل على "الساكن " في الدور الأرضي، وعندما رفع رأسه وقال:

- يا غجر ياللي بترموا زبالة.. يا معفنين.. رددت عليه بكل هدوء:
- أنا مارميتش حاجة.. أنا بادفع خمسة جنيه للزبالة كل شهر..

فرد علي باعتذار وأدب:

- يا بيه مش قصدي حضرتك.. أنا قصدي على العالم الجزم اللي بيرموا زبالة من فوق!

* * *

.. تزوجت "شيماء" في "١٥ مايو" وهذا التاريخ، يعني عندي انتصار "السادات" – بكل ما فيه – على بقايا "عبد الناصر" والسادة رؤساء تحرير صحف الحكومة، أسموا الانقلاب الذي قام به "السادات" ثورة التصحيح، ومن بعد هذا التاريخ، انطلقت ثورات عدة، منها "الثورة الخضراء" التي قام بها الرئيس المؤمن وزرع عدة شجيرات في الصحاري، وظهرت بشائر عملية التوفيق بين "العلم والإيمان" وظهر الشيخ الشعراوي في حياتنا، والدكتور مصطفى محمود، وانتشرت مقولات " مصر فوق الأحزاب، ومصر أولا، وأغنية مصر هِيه أمي، وبالعلم نبني ونعمر" وظهر أثرياء الانفتاح، وعاد "النوبيون " إلى " أبو سمبل" لأن السادات لم يستطع هدم السد العالي وإعادتهم إلى بلادهم الأولى، فأعادهم – رمزيا – حتى يثبت لهم أنه عكس " جمال عبد الناصر" الصعيدي "القِفْل" الذي ورط البلد في حروب بلا طائل وأنه رجل "السلام" الذي يريد عقد مصالحات بين كل المتناقضات، وأنا عندما خطبت "شيماء" لم أكن أعرف أنني دخلت "حقل ألغام" فالنوبيون يكرهون "العرب" – بوجه عام – والصعايدة

وجمال عبد الناصر بوجه خاص ولهم أغنيات وقصائد فـي مدح بلادهم "النوبـة القديمـة" وبمجـرد أن يـروا عربيـا أو صعيديا يرطنون بلغة يسمونها بالعربية "الرتـان" وتعلـو ضحكاتهم..

.. هي نوبية الأب وأمها "فلاحة" من "الدلتا" وأنا مـن "البدو" [١] الذين استقروا في الصعيد وجـدها لأبيهـا كـان "طباخًا" وأجدادي ماتوا و "النبابيت " فـي أيـديهم، وكانـت حيرتي كبيرة عندما رأيت صورة "جمال عبد الناصر" معلقة في غرفة نوم أبيها، بينما أعمامهـا كـانوا يتحـدثون فـي حضوري مادحين "السادات" لاعنين "ناصر"!

.. مر شهران على زواجنا، واستطعت التوصـل إلـى صيغة تعايش معها، وفي ظهيرة من "يوليو" انتفضت فجـأة وقالت:

- نازلة أشتري جبنه وبيض من السوبر ماركت.

([١]) الذين استقروا قبل قيام دولة "محمد علي" وبعدها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في قرى "أسيوط" و "سوهاج" و "قنا" .

.. وقبلها بدقائق أخبرتني بأن "حلّـة الميـه" – علـى البوتاجاز،.. ساعة، ساعتان ولم تأت "شيماء" وأنا أضـرب "أخماسا في أسداس" وآكُل في نفسي ومخّي يودي ويجيـب.. طب هيه راحت وين؟ تاهت؟.. خطفوها؛ راحـت لواحـدة صاحبتها، أغمي عليها في الشارع؟!!

نزلت إلى "الشيخ ياسر" في دكان المنظفات الذي يملكه وعليه لافتة "مكة للمنظفات".

- السلام عليكم يا بو محمد.. ما جاتشي "شيماء" عندكم؟
- جات، وراحت مشوار مع "أم محمد"..
- شكرا.. أنا كده مطمئن..
- رجعت إلى الشقة، وجلست، بعد دقائق أهلّت "أم محمد" بخمارها ووجهها الأبيض الجميل..
- سلام عليكم ..
- عليكم السلام..
- تسمح يا أخ "عباس" بكلمة؟.
- نعم يا أم محمد.. تحت أمرك..
- أبدا.. بس والنبي بالراحة شويه على الأخت "شيماء"..
- إيه في حاجة حصلت؟

- أبدا.. دا هيه جاتني فِ الدكان وبكت وقالت لي إنـك زعلتها..

- أنا.. زعلتها؟!!

- حصل خير؛ كل اللي متجوزين جديد بيعملـوا كـده.. هدوا السر واخزوا الشيطان..

- ماشي.. ألف شكر يا أم محمد.. ألف شكر..

.. رجعت "شيماء" وألقت التحية، وكأن شيئًا لم يكـن..

سألتها:

- إنتي فيه حاجه مزعلاكي؟!

- لأ أبدا..

- أمال رايحه تشكي لأم محمد ليه؟

- لأ أبدا مااشتكيتش..

- يعني هيه جات من نفسها؟

- جات؟ .. إمتى؟!

- من خمس دقائق، وقالت لي إنك شكيتي لها وبكيتي ..

- أبدا. ماحصلش..

- طب هيه كدابة..

- أنا ما قلتش كدابة..

- طب غبتي الوقت ده كله وين؟

- رحت مع أم محمد السوق نشتري خضار..

- إنتي قُلتي هتشتري جبنه وبيض من السوبر ماركت..

- لأ.. ماهيه قابلتيني وطلبت مني أروح معاها، رحـت وبعدين رجعت اشتريت الجبنة والبيض..

دخلت أوضة النوم، لبست هدومي ونزلت إلى الشـارع عز الحر، مشيت من محطة "صبحي حسين" إلـى محطـة "المفارق" ركبت الأتوبيس إلى السيدة عائشة، مشـيت إلـى ميدان لاظوغلي جلست في مقهى، قابلني صـديقي "عـدنان إسماعيل" المحامي، المطلّق زوجته، أبو الطفلتين.. حكيـت "الموقف كله" فابتسم وقال:

- ولا يهمك.. الحريم عقلهم صغير.. الواحـدة ممكـن تضحك عليها بقرصة خفيفة، كلمـة حلـوة، هديـة.. يا راجل روق بالك إوعى تغلط غلطتي.. آديني طلقت وخربت بيتي بإيدي.. إيه اللي كسبته أنا؟!!

زفّة فرحنا أنا "شيماء" كانت بزعامـة خالهـا "عمـاد" ومجموعة من الشباب يرتدون زي "الصيد" وكل واحد بيـده دف، خالها "عماد"، أصغر أخوالها سنًا، وأعلاهم دخلا، لأن

"البقشيش" الذي يتقاضاه من زبائن فندق "فلسطين" الذي يعمل فيه نادلا ضخم جدا، رغم أنه بارد وغبـي، وثقيـل الظـل، وكرهته من أول نظرة، وكرهني، وأحدث أزمة بيني وبـين "أم طاهر" فقد شكت لي أنه سأل عنها يوم الخطوبة بقوله:

- مين الوليه أم بوز ناشف دي؟!

سمعته "أم طاهر" وأخذتها العزة بالإثم، وذهبـت إلـى "عوض غريب" في الدكان وهددته:

- لو ما اعتذرشي نسيبك "عماد" أنا هاخلي "عباس" يفسخ الخطوبة.!

فرد "عوض" عليها:

- وا حقك علي، وأنا ما اقدرش أخلي ابني يعتذر لحد، والأستاذ "عباس" لو فسخ الخطوبة يبقى ما خسـرناش حاجة.!

.. ولولا "الحشيش" الذي دخنته أنا و "حودة" و "طـاهر" وربع البراندي الذي شربته، ما استطعت أن أحتمـل دوشـة الزفة؛ و "غلاسة "المصور الذي ظل يعلمنـي درسـا فـي الأخلاق، وفضل الصلاة، وهو يلتقط صوري مـع "شـيماء"

ولا احتملت برود "الكوافير" الذي ظل يردد كلمـة "مبـروك يا عريس" على أمل أن أحن وأعطيه "بقشـيش" وتجاهلتـه فحول "قولة مبروك" إلى نظرة احتقار لي، كان ينظر إلي من فوق لتحت" ولما انتبهتُ إلى معنى نظراته الكارهة، أخـذت "شيماء" من يدها إلى "العربية "المنتظرة أمام المحل.

.. انتهت الزفة؛ وفوجئت بصديقي "طارق همام" ومعـه مجموعة من شباب قصر ثقافة "دمنهور" كان أحدهم مطربـا – على قد حاله – ومعه "عود" جلس يغني لنا أنا وأصدقائي "سامح" و "هيثم" و "عادل" الذين حضروا من "القاهرة" ولـم يكلف "عوض غريب" نفسه عناء تقديم "مشروب" لكل واحـد منهم، فأخرجت من جيبي عشرين جنيها أعطيتها لـ "علاء" وطلبتُ منه أن يشتري "سفن آب" و "كوكاكولا " للأصـدقاء، فأخذ "الفلوس" ولم يحضر شيئًا، وبعد ساعة حضـر خالهـا بسيارته – التي دفعت لـه أجرهـا مقـدما – ليحملنـا أنـا و "شيماء" و "نجلاء " إلى شقتنا بالهضبة الوسطى بالمقطم.

.. منظرها في الزفة، كان تطبيقا حيا للقـول المـأثور "يحيي العظام وهي رميم" ففي يوم "الخطوبة" كانت "الألوان" قد اختلطت على وشها، لتجعل صورة "الغوريللا" الشهيرة في

فيلم لـ "عادل إمام" حاضرة في ذهني طوال الساعة التي قضيتها بجوارها في شقة الدور الأرضي، و "حريم" عزبة المهاجرين حولنا، وزميلاتها في شركة كابو [1] القصيرات، الدميمات، المحجبات، فتاة واحدة قالت كلاما غاظني يومها:

- قمر يا "شيماء" وعريسك قمر!!

.. أحد أعضاء الفرقة، ابتسم لي – ابتسامة بلهاء – وأمسك يد "شيماء" ويدي وكأنها دعوة لي، كي أرقص أنا وهي..!

فاحتديت عليه:

- اوعى.. أنا مش بتاع الكلام ده!

فقالت "شيماء":

- إعمل زي ما بيقول لك..

- نعمل إيه.. نرقص يعني!

- وفيها إيه؟

---

(1) إحدى شركات "القطاع العام" متخصصة في صناعة الملابس الداخلية وكانت "شيماء" تعمل فيها "فرازة ألوان".

- مش عارفه فيها إيه؟!

- بس.. قفلنا على كده.!

وركبنا سيارة خالها؛ ولم أكلمها، وراح ذهني يسـترجع شريط ذكرياتي في "بنجا" و "الحزب" وأبي، وأختي "عدليـة" التي سرى "السرطان" فـي جسـدها وأنـا هنـا "عـريس" و "العروسة " في غاية الغباء، والقسمة والنصـيب والوقعـة الطين، و "القايمة" وعقد القران، وحكاية "دعاء" وكلام الناس؛ والعبارة التي نقلتها لي "عدلية" عن أخينا "مطاوع" الذي قـال في حضور عدد من أقاربنا:

- "عباس" صايع، خمورجي ومش بتاع جواز ومسئولية وعيال!

دخلنا الشقة، دخل خالها، و "نجـلاء " أختهـا؛ خلعـت "شيماء" الطرحة والفستان و "التاج" والأظـافر الصـناعية؛ أخذت " نجلاء " هذه الأشياء وودعت أختها بقبلتين، وكـذلك فعل خالها "إبراهيم" الميكانيكي المصـاب بـالربو وخلعـت "البدلة" وقالت "شيماء":

- أطلب منك طلب بس من غير زعل!

- اطلبي..

- نصلي ركعتين، زي بابا ما قال..

حسبتها في ثوان، ودخلـت "دورة الميـاه" وتوضـأت، وفرشت السجادة ووقفت ورائي، صلينا الركعتين، وفتحـت "الراديو" على موجة "القرآن الكـريم" كنـتُ مرهقًـا جـدا، استلقيت على السرير، و "شيماء" كذلك؛ لم أشعر بنفسي غير في ظهر اليوم التالي.. صحونا، كنت أشعر بـالجوع؛ ولمـا سألتها عن الأكل الموجود في "الثلاجة " قالت:

- ما فيش غير جبنة وزتون.!

- يبقى خلاص، هانزل اشتري أكل وارجع الك.

اشتريت "عيش" و "كيلو لحم" وشريط "فيتامينات" وفـي الطريق شربت "عصير جزر" ومشيت المسافة مـن محطـة "صبحي حسين" إلى "السـوق" تحـت وهـم أن "الفيتـامين" و "الجزر" والمشي، سوف يساعدوني على القيـام بمهمتـي الجليلة، مهمة فض غشاء بكارة "شيماء".

- ٧ -

رأيت "عوض غريب" – لأول مـرة – علـى الكنبـة الأسيوطي في شقته، وصورة الشيخ الشعراوي معلقة علـى الحائط، وجهاز التليفزيون، والآيات المبروزة فـي الصـالة الضيقة في الشقة التي حصل عليها بعد انهيـار بيتـه فـي "امبروزو" فأحسستُ أنني في أول طريق الراحة، كنـت قـد خرجت من تجربة "دعاء" في الصعيد بدروس مهمة، منها أن "البنت" التي سأتزوجها لابد من أن يربيها أبوها، لأن غيـاب أبي "دعاء" في ظل وجـود أم "جاهلـة" أصـابها بالتشـوه، أو غياب الحدود الفاصلة بين "الصح" و "الغَلَـط"، وعنـدما خرجت أمها البيضاء – المحتفظة ببقايا جمال – وصـافحتنا أنا وأم " طاهر" و "طاهر" و "حودة" والصـول "مصـطفى عشماوي" أحسست بالفارق الواضـح بـين " أم دعـاء " – حماتي السابقة – و "أم شيماء " حماتي المنتظرة – أو حماتي تحت التأسيس – كما أسميتها فيما بعد؛ وفي الحالتين – الأب والأم – رأيت " زبيبة صلاة " في قورة كل منهما؛ فتـذكرت المرحوم الوادي والمرحومة والدتي والعقيد " علـي فـؤاد"

مسئول شئون الضباط بمديرية أمن الفيوم، وهو من معارف مرحلة من حياتي بدأت بإقامتي في شقة مفروشـة فـي أول شارع فيصل – في العقار رقم " ٩ " شارع " علي عليـان " بالمشابك بجوار ترعة "عبد العال" شاركني فيهـا " سـلطان النجار "الصحفي بمجلة " أكتوبر" وهو من إحدى قرى المنيا، لمستُ فيه بساطة ودماثة خلق، ونشأت بيننا مـودة، جعلتـه يصحبني إلى بيت عمه الموظف بمديرية التعلـيم بـالفيوم، المتزوج من السيدة " فاتن عمار " ذات الثروة والجمال، مات أبوها وترك لها عشرين فدانًا في " كيمان فـارس" وعشـقًا للتصوف، خلّفَتْ ولدها البكري، ومات في سـن العاشـرة، فدخلت مرحلة المرض النفسي، ثم التصوف والطواف طوال العام في موالد "الحسين" والسيدة زينب" و "السـيد البـدوي" و "إبراهيم الدسوقي" و "عبـد الـرحيم القنـاوي" وسـيدي " جلال السيوطي" وإطعام فقراء "الطريق الصوفية" وقراءة الأوراد ولما رأتني أنا و "سلطان" ابتسمت مرحبة:

- يا أهلا وسهلا.. كرما وا ورزقكم قدامكم..

جاءت بالطعام؛ وبعد دقائق، اقتحم الشقة ضابط برتبـة العقيد، سلم عليها وجلس على الكنبة؛ ثم طلب منها أن تعد له "حجر معسل" ففعلت؛ وبدون مقدمات نظر إلي "العقيد" وقال:

- إنت هتتجوز واحدة حلوة جدا وفقيرة جدا..

فضحكت، وضحك سلطان والسيدة " فاتن " أوضـحت لي:

- على فكرة اللي هيقولهولك "الباشا " هيحصـل معـاك بالظبط.!

وأنا مبتسم ابتسامة خجلى، قلت له:

- والعروسة إن شاء ا . بيضا ولا سمرا!!

فشد نفس المعسل، وتجهم وقال بحدة:

- بيضا يا ابن القحبة.. بيضا!

- لأ لأ.. عيب عليك.. إنت راجـل كبيـر.. الغلط لأ.. إلا الغلط..

فتدخّلت "فاتن":

- يا أستاذ.. الباشا ما يقصدش حاجة..

وعضت على شفتها السفلى وغمزت بعينها فيما معنـاه أنني لا يجوز لي أن " أزعل" وأن في الأمر سـرا سـوف أعرفه خلال دقائق أو ساعات، أو أن "الباشا " لـه ظـروف عقلية ونفسية خاصة تحتاج مني سعة الصدر.

- ماتزعلشي يا أخ.. وبعـدين اسـمك هيبقـى كبيـر، وهيتنشر فِ الصفحات الأولى، وحسن الألفـي هـوه الوحيد اللي هيقضي على "الإرهـاب" وأمـك بتحـب أبوك.. وحقك عليه، حقك عليه، يا سيدي أنا عيـل.. يا " فاتن ".. أنا ماشي.. عاوزه حاجة؟

- عاوزه سلامتك.. مع السلامة..

و "سلطان" في "نُص هدومه" ينظر إلي ثم ينظـر إلـى امرأة عمه؛ ثم اعتذر:

- أنا آسف ماكنتش أعرف إن الأخ ده هييجـي ويعمـل اللي عمله..!

فرددت امرأة عمه:

- يا أستاذ عباس دا راجل متصوف، واصل، قعد سـت سنين يسقي قدام "الحسين" "القِربة" فوق كتفـه، وهـو

لابس بدلته الميري.. ست سنين بحالها ومرتبه ماشي، يقبضه ويفرقه ع الغلابة..

- بس اللي نعرفه إن "الميري" له قانون، مـا يسـمحش بالغياب بدون سبب وفيه محاكم عسكرية وسجن.!
- كل اللواءات عارفينه، أصل أبوه ا يرحمه كان "لوا" فِ الداخلية وأخوه الكبير برضـه "لـوا" ماسـك فِ الصعيد مش عارفه "قِنَا" ولا "سوهاج". إنت تعرف إنه مره قابل واحد عندنا هنا وقال له: أبوك هيموت بكرة والراجل زعل منه، وتاني يوم، أبوه مات.!
- هوه ربنا إدى علمه لحد؟!
- لأ لأ يا أستاذ.. عند الحتّه دي واستنّى عندك.. الحكاية دي مافيهاش هزار. فيه نـاس ربنـا بيشـيل عـنهم "الحجاب".. وفيه حديث قدسي عن رب العـزة أكيـد حضرتك عارفه "من عادى لي وليا آذنتـه بـالحرب" "الولي" ده ربنا سبحانه وتعالى بيفتح له "طاقة" يشوف منها ويعرف..

بعد شهور، فوجئت بالسيد رئيس التحرير يكتب عنـي سطورا في المقال الافتتاحي للعدد "عباس.. شاب صـعيدي

موهوب.. سوف يكون له مستقبل كبير في مهنة القلم وبلاط صاحبة الجلالة".

فلعب "الفار في عِبي" وتذكرت المقالات التي قرأت في المجلات حول فكرة "الحدس" أو "الحاسة السادسة" واعتبرت "علي فؤاد" واحدا من هؤلاء الذي يملكـون هـذه "الحاسـة" وتذكرت حكاية "عمر بن الخطـاب" عنـدما كـان أميـرا للمؤمنين، وكان يخطب فوق المنبر، ثم فجأة قطـع الخطبـة وصاح:

-الجبل.. يا سارية.. الجبل..

وقال الراوي إن "سارية" قائد الكتيبة الذي كـان يقاتـل الكفار، سمع نداء "عمر" واحتمى بالجبل، وتحقق له النصر، وعاد إلى "المدينة المنورة" وروى ما حدث وأنه سمع صوت أمير المؤمنين يوجهه في أثناء المعركة!

وظل اسم العقيد " علي فؤاد " في ذهنـي، ثـم كانـت المفاجأة الثانية، اشتريت عددا من أعداد مجلة " صباح الخير" فقرأت حوارا صحفيا أجرته معه المجلة تحـدث فيـه عـن موقف الإرهاب في قرية " كحك " أو " كعك" وجماعة " عمر

عبد الرحمن" و "الشوقيين" و "التكفير والهجـرة" و "التبليـغ والدعوة" قال إن ظهور هذه الجماعات بكثافة فـي منطقـة "الفيوم " ليس غريبا، لأن في الفيوم ظهر "اليهود" وعاشـوا، وعاش فيها " سيدنا يوسف" وأسرته، و "قارون " أحد أغنياء هؤلاء ودلل بالآية " إن قارون كان من قوم موسـى فبغـى عليهم" وإن الإسلام لابد أن يعود غريبا كمـا بـدأ غريبـا، وغربته كانت في الفيوم.!

والمحرر سأله: هل أنت واثق من قدرة وزارة الداخلية في القضاء على الإرهاب؟ فقال: طبعا.. أنا واثق، واللـواء "حسن الألفي" هو الوحيد الذي سيقضي على الإرهاب لأنـه من أهل "الحقيقة". والنصر قريب بإذن ا ..

وبعد سنوات وقعت "مذبحة الأقصر" التي راح ضحيتها ستون سائحا من ألمانيا وسويسرا وإيطاليا؛ واعتذرت "مصر" ممثلة في قيادتها السياسية العليا وتم عـزل "اللـواء حسـن الألفي" وقبلها كانت جريدة "الشـعب" تنشـر وقـائع فسـاد وأشارت إلى "اللواء الألفي" ووالده، ودار صراع بين الجريدة واللواء المخلوع، وانطوى على نفسه، ولم يعد أحـد يـذكره ومات العقيد "علي فؤاد".

دخلت "شيماء" بالصينية، بيضاء، طويلة، ترتدي الخمار الأبيض، عيناها واستعان، جلبابها الفضـفاض، البرتقـالي، جعلني أحس براحة، وتذكرت العقيد: "علـي فـؤاد" وقلـت لنفسي:

- يبقى كلام الراجل ده صح.. البنت بيضـا زي قـال، الحالة هنا على قدهم، بس اللي تعلمناه إن التصـوف والكلام ده، كلام مش علمي، لكن برضه العلم كل يوم بيتقدم وبيكشف أسرار الكون..

قرأنا "الفاتحة" وقالت " أم طاهر ":

- يا بو علاء.. الأستاذ "عباس" زي ابني، بيدخل علينـا ويطلع من عشر سنين.. وهوه عامل "التنجيد" وأوضة نوم وأوضة " صفرة" وشفته ف " مصـر" والشـبكة هيشتري بألف جنيه..
- ماشي يا أم طاهر.. اللي تنقص أنـا ملـزوم بيهـا، والشبكة اللي هيجيبها بألف جنيه ولا أقل من ألف إحنا برضه موافقين.. المهم إن احنا ندعي لهـم بهـدوان السر، وربنا يتمم بخير..

فقال الصول مصطفى عشماوي:

-وبالنسبة للمؤخر.. هنخلّيه ألف جنيه برضه..

فابتسم "عوض غريب" وقال:

-يرضيكي يا أم طاهر؟

- إذا كان عليه، أنا عملت مؤخر "عـزة" ٥٠٠ جنيـه.. والألف كويسه..

- أنا بعد إذنكم موافق على ٢٠٠٠ جنيـه عشـان أنـا شاري..

- خلاص على خيرة ا ..

قالها "عوض غريب" فزغردت امرأة من داخل المطبخ، واتفقنا على موعد الخطوبة وطلبت تأجيل زيارة "شـيماء" – لشقتي في المقطم – وبعد "الخطوبة" بشهرين، جـاءت هـي وأبوها؛ ورأيت الحزن يغمر وجهها عندما رأت أوضة النوم والسفرة، و "الباب الصاج". [1]

.. همس "عوض غريب" في أذني:

([1]) فكرة "الباب الصاج" كانت مناسبة لظروف منطقة المقطم التي زادت فيها حوادث السرقة بالإكراه والسطو المسلح.

- غير الباب عشان شيماء زعلانه بتقول إنه عامل زي باب السجن، والحوض اللي فِ الحمام، بـدال مـاهوه متعلـق، إعمله حوض بركبة..

- وإيه تاني يا بو علاء؟!

.. أبدا.. هيه مش عاجباها أوضة النوم.. لكن اطمن أنا هاقنعها.

- يعني هيه أوضة النوم وحشه؟.. دي " قشـر جـوز" وخشب زان م الأصلي!

- لأ هيه بتخش بيوت خالاتها وصـاحباتها وبتشـوف، وبعدين بكره وبعده الحاجات دي هتتغير.. ما تزعلش، دي حاجات بسيطة..

* * *

ظهرتُ في حياة "عوض غريب" في مرحلة مـا بعـد "المعاش المبكر" الذي حصل عليـه مـن شـركة الكبريـت وتقاضى " ٢٥ ألف جنيه" توزع برنامجه اليومي بين العمـل في دكانه الصغير في عزبة المهـاجرين اشـترى ماكينـة "سرفلة" و "أوفر" واستأجر الدكان، وانهالت عليه خياطـات المنطقة، تعطيه "الهـدوم" ويتـولى هـو عمـل "الأوفـر"

و "السرفلة" للبنطلونات أو الجيبات، و "العـراوي" وأمامـه تليفزيون " أبيض وأسود" و "مصحف صغير" وكتاب "عذاب القبر ونعيمه" وجهاز كاسيت صغير وعـدد مـن أشـرطة المطربين الراحلين، أم كلثوم، وعبد الحليم، وعبد الغني السيد وشكوكو، وثريا حلمي، وأسمهان، وفي "الفاترينـة " علـب تحوي شارات الصحة المدرسية والشرطة المدرسية، وعلب تحوي اللعب "البلاستيك" واستغل موقـع الـدكان – خلـف مدرسة السيدة خديجة الابتدائية – وهيـأ لزوجتـه "عزيـزة الهطلة" – كما تسميها أم طاهر – مكانًا وضعت فيه "قِـدرة فول" و "طاسة طعمية" كانت تبيـع السندوتشـات لأطفـال المدرسة إلى جانب الأقـلام الرصـاص والحبـر الجـاف والكراسات والكشاكيل الموجودة أيضا في فاترينـة الـدكان؛ وبعد حادثة محاولة اقتحام شباب العزبة – الدكان – وسـرقة محتوياته، اضطر إلى تركيب "باب حديد" كلّفَه عدة مئات من الجنيهات وقال:

- كده أحسن بدال ما اخش فِ خناقة مع شوية صـيع.. إحنا قاعدين هنا بأدبنا، ولولا الزلزال كنت قعدت فـي "امبروزو" كانت أيام حلوة "شـيماء" اتولـدت هنـاك

و "علاء" و "نجلاء" وكانت مدارسهم هنـاك، وكـان الرزق أوسع من هنا..

وفي البلكونة علّق خمسة أقفاص فيها عصافير ملونـة، يرعاها بنفسه، يشتري لها طعامهـا المخصـوص، ويزيـل مخلفاتها، وكنت أجلس في البلكونة أراقبه وهو واضع علـى عينيه نظارة طبية يراقب ويفحص كل عصـفورة، ويؤلـف بين" الذكر" و "الأنثى" وعندما ماتت واحدة مـن عصـافيره قضى نهاره حزينًا:

- تصدق.. العصفورة اللي ماتت دي صعبانه عليه.. أنا من يوم ما طلعت "معاش" وهمه ماليين عليه حيـاتي، تصدق أنا الصبح أصحى على الزقزقة بتاعتهم وأقوم أصلي الصبح، أحس إن اليوم حلو، والـرزق كتيـر، وابقى مبسوط، حتى لو "أم علاء" قالت كلمة ناشـفة، ولا واحدة مِ الزباين، أسامحها وارجع جري أحط لهم الأكل واتفرج عليهم، دول عندي غلاوتهم من غـلاوة "شيماء" و "علاء" و "نجلاء" ..

* * *

- وا أنا يعلم بيه ربنا.. "حودة " لا شغلة ولا مشـغلة، راح يومين مع واحد نقـاش، ورجـع لـي متعـور فِ رجله، بدال ما كان هيديني "قرش" صرفت عليـه عشرة، وآديني زي ما انـت شـايف، أمـي شـويه، و "طاهر " شويه.. كل يوم مصاريف، وسهر، والبنت اللي راح اتجوزها وحطّها لنا فِ الشقة.. ولّعت البيت بالسحر والحاجات الوحشة، حتى عيا "السكر" نقلتهوله، ابني اللي كانت عليه صحة مـا شـاء ا ، بقـى زي ما أنت شايفه، طول النهار نايم، وطول الليل يشـرب فِ خمرة وحشيش..

هذه "الشكوى" لا تتوقف "أم طاهر" عنها، تقريبا في كل مرة دخلت بيتها تسمعها لي مرة أو مـرتين، ولا تنسـى أن تذكرني بابنتها الغلبانة "عزة" – نور عينيها من جوه – التـي ترسل لها في كل أسبوع مبلغًا لا يقل عـن " ٢٠٠ جنيـه " تحوشهم من مصروفها الذي يخصصه لها زوجهـا "حمـو" صاحب محلات بيع المصنوعات الجلدية في شارع "قصـر النيل" بالقاهرة، أما قصة زواج "عزة" من "حمو" فهي الأغنية الجميلــة التــي تتغنــى بهــا فــي أوقــات إشــادتها

بأسلوبها – الشخصي – في احتمال القسوة والترمل، وأحيانا تشكو من أفعال "طاهر" ثم تذكر القصة.. المهم أنها في جميع الحالات تقول إن "عزة" طيبـة، وبنـت حـلال، وجميلـة، وشعرها ناعم، وعيونها واسـعة، وهادئـة الطبـاع، وزي النسمة، واحتملت الضرب والإهانة من "طـاهر" – قبـل أن يعرف طريق الندوات والمؤتمرات والثقافة – عنـدما كـان يرجع آخر الليل " سكران " من عند أصدقائه في "الكيلو ٢١" يطلب " لحمة " أو " فراخ" فيجد الأكل البلدي البسيط فيثـور فيحطم زجاج الشبابيك، وكراسي الأنتريه، والمواعين، ويخلع "الحزام" ويضرب "عزة" وأمه، ثم "حودة" ويقف فِ البلكونـة عاريا، ويسب ويلعن الظروف والأحوال وأبيه الـذي مـات وترك له أما "شرموطة" وأختًا لا تختلف عن أمها كثيرا فـي "الشرمطة واللبونة" عندما قرر الزواج من "وردة ". البنـت التي نشأت في "غُربال" وأبوها يعمل "خـدام جـامع" جعـل مؤخرها " ١٠٠ جنيه" وجاءت لتعيش معه في أوضـة مـن الشقة، فيها سرير عـرض "١٢٠ سـم" ودولاب صـغير، و "كتب " اشتراها من شارع "النبي دانيال".

"عزة" أحبت معتصم أثناء دراستها في كلية التربية، قسم اللغة العربية، كانت تذهب في حصص "التربية العملي" إلـى مدرسة "باحثة البادية " التي يعمل فيها، وهناك نشأت قصـة الحب، التي لم تكتمل، لأن " حمو " كان أسرع وأكثر قـدرة مالية، وهي كانت تسعى للخروج من البيت بأيـة صـورة، وتحت أي وضع، تقدم "حمو" وافقت أمها وزوج أمها الصول المتقاعد "مصطفى عشماوي " – "المحصل" حاليـا بشـركة "الملاهي" بالمنتزه – خلال أسبوع كانت "عزة" زوجة تعيش في شقة فخمة في المعادي، تخدم "حمو" وأمه وأباه؛ وعاشت فترة تأنيب ضمير، بسبب معرفتها إدمـان "حمـو" تـدخين الحشيش وشرب الخمور والخروج فـي رحـلات جماعيـة إلى"وادي الريان" في الفيوم وشـرم الشـيخ فـي سـيناء، والأقصر وأسوان مع " شلة " تضم " بنات ليـل" و "بنـات بايظة" ولكنها عندما وصلتها أخبار "معتصم" وعرفـت أنـه يشوه سمعتها، ويقول إنها "بايظة فتحها جوز أمها" انغمسـت في دور الزوجة المخلصة و "البنت الأصيلة" التـي تسـاعد أهلها من "باب حلال" هو مصروفها الذي يعطيه لها "حماهـا الحاج" و "حماتها الحاجة".. ومنذ أن عرف "طاهر" طريـق

القراءة والثقافة، أصبح الحوار الذي لا ينتهي بينه وبين زوج أمه "الصول مصطفى عشماوي" يدور حول موضوعين شعر العامية وحرب أكتوبر و "السادات" واتفاقية "كامـب ديفيـد" الصول "مصطفى" يتحدث دائما حديث الذكريات عن الفتـرة التي خدمها في سلاح "الصاعقة" وينتهز فرصـة وجـودي ليحكي عن فترة التدريب الصعبة التي قضاها بعـد هزيمـة ١٩٦٧ وحتى تحقق العبور المجيد في أكتوبر ١٩٧٣، ودائما ينفي عن نفسه تهمة "الفقر" فيقول إنه تطوع في الجيش لأنـه يحب المغامرة ويعشق "السلاح" بعد زوال عز الوالـد الـذي كان يملك الخيول والأطيان في البحيرة، وعندما عرف أنني قضيت فترة الخدمة العسكرية في سلاح المشاة، استفاض في الحديث عن العلاقة بين "أفراد المشاة" و "قـوات الصـاعقة" والفروق الدقيقة في برامج التدريب والدور في المعركة؟!

ولأن الصــول "مصــطفى عشــماوي" تــزوج "أم طاهر" السيدة " حكيمة عبد الظاهر" المولودة فـي "حـوش عيسى – بحيرة" في الفترة التي كان يجتاز خلالها "طاهر" مرحلة المراهقة فاعتبر كل محاولات "النصـح" والتوجيـه التي قام بها "الصول زوج الأم " محاولات الهـدف منهـا

النيل من رجولته وشخصيته، وظلت العداوة مكتومـة فـي صدره، لا تظهر إلا فـي المواقـف التـي يحـاول فيهـا "مصطفى" لعب دور "حمامة السلام" بين "طاهر" وأمه وبين طاهر وجدته لأمه؛ أو بينه وبين أخته "عزة" التي لم تتوقف عن تقديم الدعم المادي له، على هيئة "فلوس" وأحذية مـن الجلد الطبيعي، وملابس جاهزة استغنى عنها زوجها "حمو" أو واحد من إخوته.

وفي الحالات التي يقبض فيها على "حودة " أو "صابر" الحلاق – خال " طاهر وحودة " – ويتم إيداعـه فـي قسـم "المنشية " أو غيره من الأقسام، يهرع "الصـول مصـطفى" ويرجو رؤساءه في شركة "الملاهي" ومعارفه من الضـباط ليتوسطوا للإفراج عن المقبوض عليه، وتمر أيام قليلة، يزهو خلالها بدروه في إنقاذ هذا الشاب أو ذاك – من شباب العائلة – من قبضة "البوليس" والتعذيب وكفوف المخبـرين، لكـن سرعان ما يتحدان – "حودة" و "طاهر" – ويعلنان التمرد:

- إنت هتذلنا يا سي مصطفى يعني ولا إيـه؟.. عشـان يعني ما عرفت لك واحد "معـاون" ولا " شـاويش " بتلات تعريفه، هتذلنا و لا هتشترينا؟!!

* * *

فتاة قصيرة شعرها مفلفل، ذات بشرة تشبه لون الفخار قبل إحراقه، سألت "طاهر":

- الآنسة دي مين .؟

- دي بنت خالتي، وخطيبتي فِ نفس الوقـت، بتيجـي تساعد أمي فِ شغل البيت..

وفي جلسة صفاء، كانت " أم طاهر" وزوجهـا يلعبـان "الكوتشينة " فقالت لي ضاحكة:

- شفت صاحبك عمل إيه؟

- صاحبي مين؟

- طاهر افندي جلاب المصايب.!

- عمل حاجة.؟

- مش راح اتجوز واحدة من "غُربال" جابت له العيـا، وجابها هنا، ولّعِتْ البيت نـار بالسـحر بتـاع أمهـا وعمايلها السودا..!

فانتبه "الصول مصطفى":

- وا العظيم يا "عباس".. الأيام اللي عاشتها معانا هنا، كنا أنا و "المدام" كل يوم نتخانق، ومرة بـابص كـده تحت السرير لقيـت "سـنان راجـل ميـت" ملفوفـة فِ قماشة، فتحتها لقيت "الورقة" – اللي معمولة لنـا بالزعل والكرهانية – قطّعتها وقلت للمدام "البـت دي لازم تمشي من هنا" .

وعقبت " أم طاهر":

- دا حتى مصروف البيت سرقته، خلتني يومهـا كنـت باشد فِ شعري، و "مصطفى" ساب البيـت يـومين، و "حوده" راح عند خالته، زعلان – يا عـين امـه – وهوه زي ما انت عارفه عيان مش حِمل زعل..
- و " طاهر " عمل إيه؟
- راح طلقها وجات هنا اختها وجوزها، وأخوها الصايع بتاع البرشام، وأبوها وأمها وكانت فضيحة فِ الحتّـة كلها..
- وخدت كل حاجتها؟
- هيه ليها إيه؟.. المؤخر بتاعها " ١٠٠ جنيه" و "الدبلة" وكفايه على كده.. دول كتروا عليهـا.. بـت بايظـة

وعندها "السكر ".. دي لا كان لها جواز ولا غيـره؛
"العبيط " بتاعنا هوه اللي جابها وعملها " مره ".!

- في مقهى "الكريستال " [1] كانت تضع نظارة سـوداء وتدخن وترتدي البنطلون، رآها " طاهر " فارتبك:

- تعال نمشي من هنا..

- ليه؟ المكان حلو..

- بنت القحبة جات.. قوم بينا..

- طب فهمني. مين بنت القحبة؟.

- البت اللي كنت متجوزها.." وردة " بتاعة " غربال" ..

- على فكرة أنا زعلان منك .!

- ليه؟.. أمي قالت لك حاجة!

- قالت لي، وكنت نحب نسمع الكلام منك إنت..

- أنا ماحبيتش أدايقك.. دي واحدة كانت بتحضر معانـا الندوات، وليها محاولات فِ القصة. حبيت أستر عليها طلعت "شرموطة " طلقتها وخلصنا..

---

(1) مقهى شهير على شاطئ البحر، يجتمع فيه قدامى الموظفين لتدخين الشيشة ولعب الطاولة، وأنصاف المبدعين يتمثلون من خلال جلوسهم فيـه حالـة المثقفـين الرافضين للواقع وفيه تجري مؤامرات للفوز بسفريات وجوائز وزارة الثقافـة وفيه تنشأ العلاقات الحرة بين المبدعين والمبدعات.

- تستر عليها يعني هيه كانت..

- آه.. عيل ضحك عليها؛ وسابها وسافر "اليونان" حصل النصيب اتجوزتها، قعدت معانا فِ البيت، اتخانقت هيه وأمي، راحت على بيتهم، جم اخواتها يتخانقوا، عاملين " فتوات" طلعت دين أمهم، أختها اللي شغاله "كوافيره" ضربتها بالجزمة فِ قلب بيتنـا، وأخوهـا "خمـيس" الصايع خرشمت دين أمه، والموضوع انتهـى علـى كده.

- والنفقة والقايمة بتوعها؟!

- لا نفقة ولا قايمة..

- لأ دا قانون سيبك مِ "القايمة" إنما "النفقة" من حقهـا، لو رفعت قضية القاضي هيحكم لها من أول جلسة..

- كده انت قلقتني.. بس هيه لحـد دلوقـت مـارفعتش "قواضي" .!

- روح اعمل توكيل لواحد "محامي" يتابع الموضـوع.. دي ممكن ترفع قضية من غير إنت ما تحس وتلاقـي واحد عسكري جاي يقبض عليك، ويبقى اسمك "اللـي حبسته مراته"!

- وا   الحكاية دي لو حصلت أشرح دين أمهـا.. أرش عليها مية نار، أقتلها.. مش كفاية جابت لي "السـكر" بنت القحبة.!

- ٨ -

.. الأكل عند "عوض غريب" متعة لا تعادلها متعة، إذا جلس للطعام، بدأت زوجته "عزيزة الهطلة " تداعبه وتضـع أمامه قطع الدجاج أو اللحم ، مرة كنت أتعشى عندهم، جلس " علاء" و "نجلاء" و "شيماء" وأمهم وأنا جلسـت بجـواره، وبدأت المعركة ، بمرور الدقائق، ابتـدأ "عـوض غريـب" يصدر أصواتًا وهو يمضغ، ثم رفع طبق الملوخية، وشرب، ثم نظر إلي مبتسما:

- إنتَ مش غريب، فأنا واخد راحتي..

جرت "شيماء" وأحضرت طبق ملوخية آخر، أضـافته إلى الطبق الذي فرغ منذ ثوان ، خلـط " عـوض غريـب" "الأرز" بالملوخية، وارتفع صوت ارتطام الملعقـة بـالطبق المعدني. وأنا آكل بتمهل وخجل، وهو بين الحـين والآخـر يؤنبني:

- ماحدش هيعزم عليك، كل.. عامل نفسك ضيف!

.. وضعت أمامي عزيزة "الهطلة" قطع لحم صـغيرة، أكلتُ قطعة، وبضع لقيمات، ثم قمت لأغسل يدي، وجلسـت

على الكنبة المواجهة للكنبة التي يأكلون حولها ، وعلى الفور – وكأنه يغيظني – بدأ "عوض غريب" بالتهام القطع التـي تركتها، وأنا مندهش.

قال لي " عوض " إن أباه كان طباخًا في بيـت أسـرة يونانية، هجر قريته " أبو الريش " في "أسوان" ليعمل في هذه المهنة منذ العشرينيات في القرن الماضي، وبعـد أن خلـف "عوض" وأخاه "مسعود" المقيم في "العصافرة " طلق أمهمـا فتزوجت من آخر وخلفت بنتًا تعيش في "الوايلي" بالقاهرة ..

"عوض غريب" عاش طفولة قاسية، دفعت به أمه إلـى ورشة ميكانيكا، ليتعلم "صنعة" بعد أن التحق لمـدة عـامين بالمدرسة عرف خلالهما حروف اسمه، وهـذا أفـاده فـي الالتحاق بشركة "البنّا " للكبريت، ولا أعرف شيئًا عن الفترة التي عاشها في "البحيرة" فالبطاقة التي يحملهـا اسـتخرجت لأول مرة من "دمنهور" والمهنة المدونة بها "سائق" وعنـدما فتحت الحكومة باب المعاش المبكر، كان "عوض غريب" من أوائل العمال الذين تقدموا للحصول على المعاش.

* * *

اتفقنا على "القائمة" والمؤخر ثم دعـاني إلـى الـدكان وأخرج ورقة مكتوبة بالكمبيوتر وقال:

- أنا ماكنتش عايز أعمل "قايمة" بـس حاجـة ضـمان الموت مِ الحياة، إمضي عليها، وأنا ربنا يعلم، الحاجة اللي اشتريتها هيه اللي كتبتها بالمظبوط.
- يا سلام، انت تأمر يا "بو علاء"

وقعت بالإسم ثلاثيا، ولم أقرأ هذه الورقة غيـر أننـي لمحت تصنيفًا لأطباق و "أطقـم" و "أنتريـه" و "بوتاجـاز" و"ثلاجة" و "غسالة" واحتفظ "عوض" بالورقة في جيبه، وقال بحنان أبوي:

- ورقة، مالهاش لازمة، بس حاجة الناس تعودت عليها، واحنا مش هنخرج من الناس..

كان ذلك في اليوم التالي لعقد القران، رغـم أنـه لـم يكلمني في الأمر قبل العقد أو أثناء الخطوبة ، حتـى أننـي أحببته ومنحته درجة "محترم" لأنه لم يكلمني في مثـل هـذه الأشياء التي تجعل "الجواز" بيعا وشراء أو صفقة.!

عندما رجع "عوض غريب" ومعه شيماء – بعد زعلهـا الأول اعتبرته رجلا محترما يسعى إلى أن تستقر ابنته فـي

بيتها، لكن عندما وقع "الزعل الثاني" بيني وبينها كشر عـن أنيابه وظهر على حقيقته.

"الزعل" جاء بعد سجالات طويلة، وتوقف عن ممارسة الجنس، وحالة زهق بدأت تتسرب إلـي ، وصـدمة نفسـية أصابتني عندما بدأ "شعر" ينمو بين فخذيها بكثافة حتى أننـي قلت لها:

- ابقي نضفي الشعر، بيقرفني .!

- أعمل له إيه؟ وبعدين مابعرفش أوصل لـه، أنضـفه ازاي؟!

ثم انتهى الجماع هذه المرة، في مـرة أخـرى خلعـت "السوتيان" وكانت المفاجأة المؤلمة نبت لها شعر كثيف حول حلمتيها ، شعر مثل شعر "العانة" .!

ونبت لها شعر حـول شـفتيها وذقنهـا، وصـدغيها ، وساقيها، هنا بدأ القرف الحقيقي يتسرب إلي، ثم سافرنا إلـى الإسكندرية لتجهيـز حفـل خطبـة أختهـا "نجـلاء" إلـى "عبد الواحد" ابن خالها " صبحي" نظفـت "شـيماء"الشـعر، وقضينا أياما نمارس الجنس بانتظام ، لكن ظهـرت مشـكلة

أخرى هي أن البقع الزرقاء بدأت تزداد في جسمها ، وكلما سألتها كانت تقول:

- دي حالة نفسية..

ولم أكن أعرف السبب الطبي الذي يؤدي إلى ظهور هذه البقع، ولما سألت صديقًا له خبرة بالطب قال لي إن الدم الأزرق يعني مشكلة في الدورة الدموية وضعفًا في عضلة القلب..

* * *

طلبت من "شيماء" بدل المرة عشرين مرة أن تجهز لي وجبة "القراميط" وكانت في كل مرة تتهرب بأسباب واهية، مرة تقول إنه يحتاج مجهودا، ومرة تقول إنها رأته في حالة سيئة مما جعلها تقرف منه، ومرة قالت إنها لا تعرف طريقة " ذبحه" ورابعة قالت إن الماء عندنا غير كاف لتنظيفه، وعندما قلت لها:

- أنا هاشتريه وانضفه وادبحه انتي بس تقليه في الزيت، صرخَتْ:

- أنا ما اعرفش، ما اعرفش..

وهي الكلمة التي تخرج منها كثيرا في كـل المواقـف، وتطور الأمر فأصبحت الرغبة في "السفر" طريقة أو حيلـة من "شيماء" لتهرب من البيت بطريقة مهذبة، قالت إن ميعاد استلامها مكافأة نهاية الخدمة أزف، وإنها لا بد أن تكون في الإسكندرية لتقضي أياما هناك وتوقع على الأوراق الرسمية، وتستلم المبلغ ، وافقت بالطبع، بل سافرت معها. وهناك، قال لي أبوها إنني لا بد أن أبيت عندهم، وهذا أمر جربتـه مـن قبل وكانت ليلة دامية، لم أنم طوال الليل لضيق المكان وعدم ارتياحي نفسيا للنوم على سرير واحد مع "علاء"!

* * *

.. المسافة من المقطم إلى "الإسكندرية" بـدت طويلـة جدا، اقترضت من زملائي حوالي ٢٠٠ جنيه، مواصـلات وثمن هدية للعروسة، فهذه واجبات وعادات، وأنا لم أكن قـد انفصلت نفسيا عن هذه الأسرة، وصـلنا البيـت السـاعة ٨ مساء، كانت قد اتصلت بهم عرفتهم موعد وصولها، ركبنـا إلى الإسكندرية حوالي الساعة الخامسة "عصـرا" ، وصـلنا موقف الميكروباص الجديد حوالي الثامنة ، من هناك ركبنـا سيارة – مشروع – بالنفر إلى "العوايد" نزلنا عنـد المعديـة

التي تقطع ترعة المحمودية إلى عزبة المهاجرين ، وصـلنا العمارات، في الشارع، كان أبوها في انتظارنا ، جرت لتسلم عليه، أخذها في حضنه طـويلا، الحضـن الاستعراضـي أزعجني، فتركتها، واستأذنت للذهاب إلى بيـت "طـاهر" ، رفض أبوهـا السـماح لـي، لأن "المسـرحية" لا تكتمـل إلا بصعودي إلى شقتهم، ثم بقائي فترة، ثم بعدها يكون مـن حقي الاستئذان.!

.. صعدتُ معهما، وأنا أحمل حقيبة "الهدوم" ، وبداخلي غيظ من حالة الزيف العاطفي التي لم أصدقها أبدا، بـل إن تكرار هذه المشاهد جعلني أعتقد أن بين "شيماء" وأبيها "زنـا محارم" لأن الأحضان والقبلات، لم تحمل أبدا العطف الأبوي أو المحبة البريئة لدرجة أنني اعتبرت أن ما يحدث تمثيليـة، يقوم فيها "الأب " بدور الرجل الغنـي الراقـي المتحضـر أو كأنه يريد أن يؤكد لنفسه مسألة أنـه "أب نـاجح" وأنـه يسيطر على أولاده بعواطفه، كان يريـد أن يظهـر أمـامي بصورة الأب المثقف، ويجعل منأولاده صـورة مـن أبنـاء الأثرياء الذين عاش بجوارهم في طفولته مـن موقـع ابـن

"الطباخ" الذي يطبخ على مزاج صاحب القصر، سواء كـان "باشا" أو "بك" أو ثري من الأعيان.!

مرة حكى لي أنه دخل في عراك مع "مهندسـين" فـي شركة النيل للكبريت، وأصر على أن لا يعمل المطلوب منه بل إنه اشترى بدلة بيضـاء كاملـة. وكـان يجلـس بـين "الصنايعية" وهو لابسها ، كان يحكي لي بزهـو ، وفرحـة تغمر صوته، لكن هزيمته بدأت تتسرب من عينيه ولم يستطع أن يخفيها.

"شيماء" كانت تجلس بجوارنا وهي متـذمرة، لأن كـل حكاياتنا أنا وأبوها تدور حول "الشغل" والخناق، مـن بـين الخناقات التي حكى تفاصيلها، خناقة دارت بينه وبين "نشال" في "الترام"، عندما كان عائدا من زيارة إلى واحد من أقاربه، وداهمه "النشال" واستطاع "عوض" أن يتعرف إليه ويحفـظ شكله، والمنطقة التي يسكن فيها، وفي اليوم التالي، اصطحب "هجام" يعرفه منذ أيام وجوده في "أمبروزو"، وهنـاك فـي المنطقة أحضر "النشـال" موثقـاً بالحبـال وبـاس رجـل "أبو شيماء"..، ولم ينس القول إنه ذهب فـي "عـز الشـتا"، بالفانلة السوداء "نص كم"، وأنا أرى هـذا الجسـد الأسـمر

العريض، فتخيلت نفسي في قاعة "سينما"، والفيلم المعروض بطولة "بروس لي" وشعرت بـالفخر، لأن صـهري بطـل، وسوف يخرج "ابني" حاملاً جينات جده القوي!

* * *

"نجلاء" كانت نحيفة إلى حد البؤس، والمرأة التي قامت بتزيينها، لطخت ما حول عينيها – حتى أنني أشفقت عليها – وهي بدون "ماكياج" سمراء، شعرها خشـن، لكـن سـاقيها قويتان، ورثتهما عن أبيها، وصوتها حاد كصوت طفـل لـم يتجاوز العاشرة؛ و "عبد الواحد" خطيبها ثقيل الوزن، قصير مدكوك، وأمه تبدو عليها علامات القوة، وفهمت من أحاديث حماتي أنها قاسية، وأنها غريبة من الأرياف وأنها لا تنسجم مع بقية نساء العائلة.

جلست "نجلاء" على الكرسي، وجلس بجوارها خطيبهـا لابسا البدلة الكاملة؛ هو يعمل سـائق مشـروع "العوايـد – العصافرة"، وكانت الفرقة شديدة التواضع، صوت المطـرب وهو يحاول تقليد "شعبان عبد الرحيم"، وشكله بشعره المفلفل، ونساء أخوال "شيماء" بالخمارات" و"الحجابات" يعطي صورة هزلية فاقعة، و"عوض غريب" منزعج جدا لا أدري لمـاذا؟،

وصديقه "ممدوح" بجواره، يلقي بالنكات البايخة، وأنا واقف، "شيماء" قد تزينت هي الأخرى، وجاء زوج خالتها "عفـاف" ليسلم عليها.. سلم وباسها في خـديها؛ وأنـا مـذهول مـن الموقف!

.. أنا متزوج منذ أسابيع، وهذا الرجـل – الغريـب – يقبل زوجتي، والناس هنا أسرة واحدة، ولو تكلمت، سـوف يقول الجميع:

- وإيه يعني لما يبوسها، دا زي أبوهـا، وهـو اللـي مربيها! انتهزت فرصة انشغال "عوض غريب" وتسللت إلى بيت "أم طاهر" والغيظ يملأني، حكيت لـ"طاهر":

- تصدق إن جوز خالة شيماء باسها قدامي ف الشارع!

- باسها؟!!.. إيه العالم ولاد الكلب دول!! وانت عملت إيه؟

- ولا حاجة!

حاول "طاهر" أن يهدئني، ويفهمني أن الأمر عادي وأنه مافيش داعي أعمل مشكلة. ساعة أو أقل مرت وأنا جـالس

مع "طاهر" في "البلكونة"، ثم نادى واحد، وصـعد، وطـرق الباب بعنف..، فتح "طاهر" الباب، وتجهم، ثم قال:

- أهلاً يا "هشام".. اتفضل.

سلم "هشام" وجلس، هو طويل جداً، يبلغ طوله المترين أو أكثر وعيناه محمرتان، بدأ الكلام..

- أنا.. أأأنا. ما حدش يقدر يحوشني عن.. عـن.. عـن بيت عمي.

فقال " طاهر ":

- هشام ابن عمي ، ساكن في " محرم بيه " ..

واستطرد " هشـام " يحكـي تاريخـه مـع "الحجـز" و "السجن" و "المطاوي" و "فرش الجزم" الذي يفرش به فـي "المنشية" وحكاية " طاهر " عندما شاركه، وأسـباب فسـاد المشروع..

.. عرفت من " طاهر " أنه وقف علـى " فـرش بيـع الجزم " مع هشام ابن عمه ولم يستطع أن يواصـل العمـل، لأن "السكر " ضاغطه، فرقد مريضا لمدة أسبوعين..

في اليوم التالي ذهبت إلى بيت " عوض غريب" لم يكن في البيت سوى "شيماء" و "نجلاء" قلت لشيماء بنبرة لا تخلو من قسوة:

- ابقى شيلي الشعر قبل قبل ما تسافري من هنا..

- أنا مافياش شعر، وبعدين من قبل مانيجي من "مصـر" وإنت ماسك حكاية "الشعر" والبقع اللي فِ رجليه، فيه إيه؟ مالك؟!!

- أبدا، إنتِ بتزعقي ليه كده، لينا بيت نتعاتب فيه.

- لأ الكلام لازم يخلص هنا.. طيب اسـكتي، أختـك جوه، ودي أسرار بيوت.

فانفعلت أكثر:

- " نجلاء" لو سمحتي سيبينا لوحدينا..

فناديت:

- يا أستاذة " نجلاء " لو سمحت خليك عندك ماتنزليش، وأنا ع العموم مروح، ولما تحبي تيجي ابقـي ابعتـي لي..

- هتيجي تاخدني إمتى؟!

نظرت إليها نظرة مستفزة و فتحتُ الباب وانصـرفتُ، فإذا بها تزرع الباب ورائي:

- مع ألف سلامة..

كنت قد هبطت بضع درجات؛ ثم حسبتها "لـو مشـيت حتى يضيع" وقررت العودة، طرقـت البـاب، فتحـت لـي "نجلاء" مرتعشة:

- إهدا.. إهدا.. تعال خُشّ.
- شاهده على اللي عملته أختك؟!.. سلام عليكم..

- ٩ -

قالت "شيماء" وأنا جالس على "الكنبة الأسيوطي" وأمها و "نجلاء " في المطبخ:

- إن شاء ا   أنا عاوزه أعمل الفرح في "نادي" ونتصور "فيديو" ونتصور في "استديو" ..

فقلت لها إن هذه مظـاهر "كدابـة" والمهـم "السـعادة" والراحة بعد "الزواج" فثارت:

- يا ربي، يعني أنا هاتجوز كل يوم ، أنا يعني مش زي البنات ومن حقي أفرح؟!..

- من حقك تفرحي، بس بالمعقول وعلى قد ظروفنا..

فاتسعت عيناها وشوحت بيدها:

- كل ما اكلمك تقول لي ظروفك؟!

فابتسمت، وشربت "الشاي" ثم ذهبت إلى بيت "أم طاهر" فقالت لي إن هذه ليست المرة الأولى التي تطلب فيها "شيماء" هذه "الطلبات" وإن معركة وقعت بينهما لهذا السبب..

- هيه جات ترد على تليفونك، وفتحت معايه الكلام، قلت لها اللي بتطلبيه ده صعب على واحـد زي "عبـاس" والواحدة لازم تحافظ ع اللي هيتجوزها، وتحافظ على " قرشُه" حتى كمان قلت لها إن "عزة" بنتي، الأصـغر منها، اللي متعلمة ومعاها شهادة عالية؛ ما اتعمل لهاش غير زفة وخلصنا على كده فزعلت وقامت ماشيه..

- طب بعد إذنك، أنا هاشوف عم "عوض" في "الـدكان" وهارجع..

- اتفضل، بس فيـه حاجـه أوعـى تستسـلم، عشـان ما ترجعش وتقول ياريت اللي جرى ما كان .!

* * *

- إيه موضوع زعل "شيماء" و "أم طاهر" ده؟!

- ليه إنت ما تعرفشي؟

- لا وا ، لا "شيماء" قالت لي، ولا حد من عندكم قـال لي..

- أنا ماكنتش ناوي اتكلم في الموضوع، لكن هاقول لـك اللي حصل، إنت من يومين اتصلت عنـد "أم طـاهر" "شيماء" راحت ترد عليك، ونزلت "باكية" وزعلانـه،

سألتها قالت لي إن "أم طاهر" بتعايرها بسنّها، وبتقول لها كلام جارح، وأنا عشان خاطرك هديتها بكلمتـين وطيبت خاطرها، بس اللي عاوزك تعرفه أنا عنـدي "شيماء" دي بالدنيا كلها، واللي يزعلها أنا ممكن اقتله..

- ماشي يا عم " عوض" ما عاش اللي يزعـل "شـيماء" بس أنا عاوز نعرف المطلوب مني إيه؟..
- ماشي يا عم "عوض" ما عاش اللي يزعل "شيماء" بس أنا عاوز نعرف المطلوب مني إيه؟..
- مطلوب إنك تدفع "٥٠٠ جنيه" أجـرة "المصـوراتي" وأجرة "العربية "اللي هتوصلكم مصر، والبـاقي أنـا هادفعه.. وخلاص..
- تحت أمرك، وإن شاء ا الأجـازة الجايـة هتكـون الفلوس عندك، وزي ما عملت "الحوض و "الباب " أنا هادفع، لأن اللي "شاري" مايهموش الحاجات الصغيرة دي، وأنا آسف بالنيابة عن "أم طاهر"..

* * *

.. حضرت "شيماء" وأختها "نجلاء" وأمها و "راندة" ابنة خالهما "إبراهيم" المخطوبة لشاب سـوري؛ وبـدأت حملـة

النظافة وفرش الشقة وتركيب "الستاير" بعد أن قمت بتركيب "الحوض أبو ركبة" في "دورة الميه" وغيرت "الباب الصـاج" طلبت "شيماء" مني أن أنزل لشراء "الموكيت" لأنها لم تعمل حسابها، اشتريت "الموكيت" الكافي لتغطية بـلاط "الصـالة" و "حجرة المكتب" وقبل أن أستريح من تعب المشوار قالت:

- "عباس" أمال فين الكاسيت؟

- وا أنا مش معايه تمنه، بس هاتصرف..

ونزلت مرة أخرى، اقترضـت مـن أحـد الأصـدقاء واشتريت جهاز كاسيت "سوبر ماريو" صيني،؛ أمسكته بيدها وعاينته:

- يعني دا صيني هيبوظ بعد شهر.!

فقالت أمها:

- يا بنتي بالراحة، ولما يبوظ يبقى يحلها ربنا..

فامتعضت:

- أنا يعني ما اعرفش أطلب حاجة؟!!

.. اشتريت "الجبنة" و "البيض" و "العـيش" و "الفرخـة المشوية" أعطيتها لأمها:

- طبعا أنا ماعنديش حد يعمل لكـم أكـل ودي حاجـة بسيطة، والليلة أنا هنبيت عند واحد صـاحبي عشـان تاخدوا راحتكم، في ظهيرة اليوم التـالي لاحظـت أن صوري الشخصـية، وصـورة المرحـوم والـدي، والمرحومة أمي ليست معلقة في أماكنها،

- يا "أم علاء" أمال الصور راحت فين؟!

- شيماء شالتهم مش عارفة حطتهم فين..

سألتُ "شيماء" فقالت:

- حرام نعلق الصور دي فِ البيت.

- مين اللي قال؟

- القرآن. والرسول عليه الصلاة والسلام..

- دي صور غاليه عليه..

- أنا عارفه، يوم القيامة هنتحاسب عليها؛ ربنـا هيقول لنا حطّوا فيهـا الـروح زي مـا صـورتوهم وعلقتوهم ع الحيطة!

* * *

- انطلق مدفع الإفطار، وانطلق الطبيب الداعية الدكتور "حسين الجمل" باكيا:

- يا رب لا تعذبنا يا ا ، يا رب لا تخلع عيوننـا مـن محاجرها بمقامع من حديد يا ا ..

والمصلون الواقفون وراءه يبكون، و "الكاميرا" تقـرب صورة رجل يبدو عليه – الفقر – والشيخوخة، دموعه تسيل، والدكتور الداعية، وجهه أبيض مستدير، يضع علـى رأسـه طاقية بيضاء؛ يرسم على وجهه حزنًا مزيفًا..

قلت وأنا أمد يدي باللقمة:

- الدين ماقالش ابكوا ف الصلا، دا حرام عليه الراجـل ده.!

فانتفضت "شيماء" خبطت "الملعقة" في جـدار الطبـق، وجرت إلى الأوضة، فأحسستُ بخجل ونظرت إلى "عـوض غريب":

- أنا غلطت ولا إيه؟!!

- أبدا ما غلطتش، بس "شيماء" بتحب الدكتور "حسين" ..

* * *

ذهبت لإحضار شيماء بعد أسبوع من الشد والجذب في التليفونات.. اتصلت بحوالي خمسين جنيها، كل مكالمة تحوي هذين التعبيرين:

- هتيجي إمتى؟

- تعال انت خدني.

أطلب منها أن تحدد موعدا فترد بنفس الإجابة:

- تعال انت خدني..

لأن الحوار الذي جرى بيني وبينها قبل رزعـة البـاب نُقل إلى أبيها بالضبط، هذه طريقتها منذ أن تزوجتها، في كل يوم تذهب إلى "المكتبة "التي تجاور البلوك الذي نسكن فيـه، وآخر النهار، أو في المساء أعود، فتقول لي عبارة:

- أنا اتصلت بإسكندرية، بيسلموا عليك ..

وأرد الرد التقليدي:

- ا يسلمهم..

في الشهر الأول، ربطـت بـين الاتصـال اليـومي و "الغربة" التي تريد "شيماء" أن تكسرها، والتمست لها العـذر،

فهي لا تعرف أحدا في "القاهرة " غير عمتها التي تقيم فـي "الوايلي" كانت ترسل ابنها كل يوم "جمعة" يبقى الولد يحكـي مع "شيماء" وتسأله عن أخويه "وائل" و "بيسو" المجنـد فـي الجيش، الذي بسببه تشاجرت مع "شيماء" أول مشاجرة فـي الأسبوع الأول ، وبسببه كسرت القانون الذي اتفقنا عليه وهو ألا تفتح الباب لأحد في غيابي، والمرات القليلة التي طبقـت فيها هذا القانون، كانت مع محصل الكهربـاء، و "الزبـال" و "طارق" ابن أختي "سلوى" الذي ظل يطرق الباب، فنظرت من العين السحرية، واهتزت سلسلة "الشـنكل" فجـاء إلـى المجلة، وقال لي إن "شيماء" لم تفتح لـه، رغـم أن الشـيخ "ياسر" جاري، انزعج من كثرة طرقه الباب، وسأله وعرف منه أنه ابن أختي، ودعاه للدخول عنده حتى أرجع..

.. مر الشيخ "ياسر" وحياني فدعوته فدخل، سألني عـن "المدام" فقلت له إنها في الإسكندرية، زعلانة ، فحدثني عـن البيوت والمشكلات التي تحدث في أول الجـواز، وقـال إن زوجته لها الجنة، احتملته كثيرا، حتى خَلّفَـت لـه " منـى" و "ليلى و "خديجة" و "محمد" طوال سنوات لـم تخـلُ مـن عراك، وزعل وفرح، حكيت له ما كان من "شـيماء" مـن

زعيق ورزع للباب، والمكالمات التي جرت بينـي وبينهـا، وبين أختها، وأخيها "علاء" الذي لا يحل ولا يربط، و "علاء" على قدر ضعفه في مواجهة أبيه، يؤدي الصلاة على أوقاتها، وهوايته متابعة كرة القدم، هو متخرج في المدارس الفنيـة، يحمل شهادة دبلوم الصنايع، يزعم أنه كهربـائي، يشـطّب الشقق وفق أحدث الأنظمة، وعندما حضر هو وأمه وأختـه وابنة خالته لفرش الشقة، لم يسـتطع تركيـب فيشـة فـرن "البوتاجاز" واستدعى " كهربائي" من المقطم، وتحدث معـي كثيرا حول معرفته بإصلاح "الراديو" والكاسيت فأحضرت له جهاز راديو "عطلان" منذ سنوات، فلم يعرف حتى طريقـة استخدام "المفك".!

خطب فتاة من "عزبة المهاجرين" وفشـلت الخطوبـة، وتبرع بالأشياء التي اشتراها، لأخته "شيماء" يريد "عـلاء " بهذه الحكاية أن يقول لي إن الأشياء التي أستعملها الآن، هي أشياءه الخاصة، وإن أسرة “عوض غريب” أسرة مترابطـة، يحب الواحد منهم أخاه، وكثيرة هي المواقف التي رأيت فيها “عوض غريب” يقسو علـى "عـلاء" لصـالح " نجـلاء" و "شيماء"، وأبوه حكى لي عن محل اشتراه بفلـوس "المعـاش

المبكر" ليعمل فيه في وظيفة كهربائي التي يزعم أنه تعلم أصولها.!

الحديث الوحيد المتكرر في هذا البيت يدور حول الأخوال وحياتهم وزوجاتهم "علاء" يقول "أخوالي" و "شيماء" تقول "خيلاني" "نجلاء " تقول "خيلاني"، وأبوهم يتحدث عن كل واحد من أصهاره، حديث التبجيل والتعظيم، الوحيد الذي لم أعرف له مهنة هو "أبو" هؤلاء "الأخوال" أو مهنته، كل الذي عرفته أنه من "الغربية" كنت في أثناء محاولات إجبار "شيماء" على العودة من الإسكندرية بمفردها قد استعنت بصديق "نوبي" كلّمها – أكثر من مرة في حضوري – وقالت له إنها كانت تود الحضور لولا أن أباها هو الذي أصر على أن أحضر لآخذها بنفسي، وفهمت الأمر ، هو لم ينس أنه في اليوم الذي ذهبت فيه معها لأول مرة، أنه بنفسه هو الذي أحضرها من "الإسكندرية" ورغم أنني شكرته على هذا الموقف وقلت له بصريح العبارة:

- إنت وا يا عم "عوض" أحرجتني..

لكنه أبدا لم ينس، واعتبرها هزيمة، اضطر إليها اضطرارا.!

تحججت للشيخ "ياسر" بأنني لن أستطيع الـذهاب إلـى "الإسكندرية" لأنني لا أملك ثمن المواصـلات ، فأعطـاني "خمسين جنيها" على سبيل السلف ، ومن تليفون الدكان الذي يملكه الشيخ، كلمتها:

- هتيجي إمتى؟!

- تعالى خدني انت..

- يعني انتي عايزه تكسري مناخيري؟! ع العموم أنـا جاي، مش عشانك، إنتي كلامك معايه انتهى، أنا جاي اتكلـم مع الراجل اللي حطيت إيدي ف إيده..

تعمدت الكلام بهذه الطريقة، التي تحتمل التأويـل إلـى معنى أنني قادم من أجل "الطلاق" ، وصلت هناك، ذهبتُ إلى بيت "أم طاهر" سألتها عن " طاهر " فقالت إنه في "النـدوة" كالمعتاد؛ فذهبت إلى بيت "عوض" وبداخلي النية أن لا أدخل هذا المكان الذي خرجت منه شبه مطرود، إلا بعد أن آخـذ حقي، وتعتذر لي "شيماء" في حضور الجميع، أو يعتذر لـي أبوها شخصيا...

طرقت الباب، وحالة الغيظ والكراهية تملأني، فتحـت الباب:

- عم "عوض" موجود؟!

فأشارت دون أن تنطق بأنه موجود ، خـرج "عـوض غريب" لابسا الفانلة الحمالات، وسلم علـي، وأنـا لـم أزل واقفًا أمام باب الشقة:

- واقف بره ليه؟ خش .. تعالَ.

- أنا هنستناك ع القهوة لحد ما تخلّص..

جلست في المقهى الصـغير طلبـت فنجـان "قهـوة" مضبوط، وبجواري كان رجل صعيدي يحكي عـن سـائق ضرب طفلا، من اللهجة خمنت أنه صعيدي مـن "سـوهاج" تذكرت الملامح ، هذا رجل من جماعة فـي بلـدنا اسـمهم "الصعايدة" فقراء جاءوا هاربين من قرية "المحاسـنة" فـي "جرجا" يعملون في مهنة "القرقرة" أبوه اسمه "حسون" متزوج من امرأة اسمها "واطفة" يخفر ماكينة ري في "مشـطا" إذن هو "سليم" ابنه "شحاته". كان زميلي في الابتدائية، وعرفتـه لما رأيته، راكبا عربة " كـارو " يجرهـا حصـان وبيـده ميكروفون، يبيع "الجوافة" ، وأنا هنا مشغول بما سيحدث بعد قليل، ولم أشأ أن أتعرف إلى الرجل ، زهقت مـن "القعـدة"

وذهبت لأقف أمام دكان "عوض غريب" .. دقـائق وجـاء يجرجر رجليه كأنه يساقُ إلى الموت.!

جلس "عوض" إلى ماكينة "الأوفر" وعلى وشـه غـيظ، يجاهد في إخفائه لكنه ظهر على هيئة طفح أحمر في عينيه، وانتفاخ في عضلات وجهه الأسود الضخم..

- ايوه .. فيه إيه؟ .. مش ناوي تعقل؟!
- أعقل!!.. أنا برضه؟!.
- طب قول لي انت .. أنا و ا "شيماء" ما قالت لـي حاجة ، ولا اعرف حاجة..
- عموما، رغم إني عارف إنك عارف كل حاجة، من أول يوم جات لحد الساعة دي، بس هنقول لك..
- أنا حلفت بـ ـ "ا " عايز تصدق، صدق، مش عايز إنت حر..
- أنا جيت من الشغل، وجهزت نفسي للسفر ، وجينـا هنا ، كان حصل بينا حوار بسيط. طبعا إنت أبوهـا مش غريب .. المهـم، هيـه عنـدها شـعر طالـع فِ جسمها، فباقول لها، شيلي الشـعر، عشـان أنـا باقرف منه .. زعلت، وقالت أنا ما عنديش شـعر ،

قلت لها روحي عند أي واحدة إعمليه، والموضـوع هينتهي .. عملتها زعله ، برضه باقول لها البقع اللي ف جسمك دي نشوف لها حل .. عملتهـا زعلـه .. أظن إن أنا جوزها، ومن حقي اطلب الحاجـات دي .. ولا هنروح بره نشوف لنا واحدة تانيه؟.. يعنـي هوه الواحد بيتجوز ليه؟!

- أولا .. أنا بنتي مافيهاش شعر ، وبعدين أنا مدي لك حاجة جميلة، لو فيها شعر، كنت أنا شفته..

- تشوفه إزاي!!

- قصدي إني أنا معاها طوال السنين دي كلها، ومافيش حاجة مِ اللي انت بتقوله ده..

- يعني أنا كداب باتبلى عليها؟!

- ماقلناش كده، إحنا بنقول إن كلامك ده عيـب جـدا، مايصحش يتقال.

- إيه هوه الكلام ده؟. قول لـي .. الواحـد سـاعات بينسى.!

- إنت مش قلت لها: شوفي نفسك إنتي متجوزة مين؟.. بتعايرها يعني! إذا كان ع الشهادة، أنا قلتلك مِ الأول،

هيه مش واخده شهادة عالية، وانت وافقت، وبعـدين إذا كان ع القراية والكتب .. كتب إيه؟.. هيه خبـرة الحياة فيه أحسن منها؟.. تعال، أنا أجيب لـك نـاس معاها شهادات عاليه، والواحد فيهم ما يعرفش نُـص اللي تعرفه بنتي، كل شويه تقول لها الكتـب، مـش عارف إيه .. وبعدين .. الكتاب [1] اللي انت بعتـه، وكله جنس .. أنا اللي منعته عنها، ولو واحد غيري كان اتصرف معاك بطريقه مش كويسه!

- انت عارف كل حاجة .. وكأنك معانا وتقول لي مش عارف.!!
- لو سمحت ماتعلّيش صوتك .. أنـا محترمـك لحـد دلوقتي عشان إنت جوز بنتي ..
- وأنا صوتي العالي دهـه مـش معنـاه إنـي مـش باحترمك، وع العموم أنا آسف .. ماتزعلشي..

---

[1] أرسلت لها كتابا يدور موضوعه حول الحمل والولادة ورعاية الطفل في سنواته الأولى، فغضب " عوض غريب " لما رأى صورة الجهـاز التناسـلي للمـراة والرجل في إحدى صفحاته لأنه سمح لنفسه أن يفتح المظروف الـذي يحمـل الكتاب وعاتبني أخوها " علاء "، ولم يجعل الموضوع يموت في مهـده سـوى أنني كنت قد عقدت قراني على " شيماء ".

- ما علينا .. وكمان، إيه حكاية كل شويه تقـول لهـا العصافير.. العصافير اللي إنت شايفها عنـدي دي، مش أي حد يعرف يربيها، ولا أي حد يعرف قيمتها. وبعدين مين قالك إن "العصافير" بتمنع الخلفة؟

- واحد دكتـور، متخصـص – قـال لـي "القطـط" و "العصافير" بيعملوا إجهاض للست الحامـل .. دا مش كلامي، كلام دكاتره .. ولا دا التاني مش صح!

- دكاترة إيه وبتاع إيه؟! وبعدين "شيماء" طلبت "قفص" عشان يبقى عندكو فِ شقتكو، مين قال لك إني كنت هاديها؟. "العصفورة" بعشرة جنيه وأنواع مـش زي ما انت فاكر كده..

- أنا يا بو علاء كنت مستني منك، إنك تقول لها عيب رزعة الباب ورا جـوزك. أنـا اتهنـت فِ بيتـك، ولا سألت فيه..!!

- ربنا هوه اللي يعلم، أنا عملت إيه ولا قلت لها إيـه. مش لازم يكون الكلام قـدامك، احنـا ربينـا بنتنـا وعارفين يعني إيه احترام .. انت دايقتهـا بحكايـة الشعر وحكاية البقع، غصب عنهـا، طلعـت عـن

شعورها .. يعني تدايقني – مثلا – وعاوزني أسكت لك! وبعدين فِ أول مرة أنا مش خدتها من إيـ دها، ووديتها لك لحد البيت؟! عايز إيه تاني، يعني هيـه خدامة اشتريتها، ولا هتذلها بـ المرض، ولا عشـ ان شهادة ولا كلام فارغ من ده؟!!

- لا أبدا .. أنا أبويا رباني يا عم "عوض" مش أنا اللي يهين مراته عشان كتاب، ولا شهادة.!

- ع العموم حصل خير .. قوم روح البيت اتغدى وخد مراتك وسافر، واللي حصل ده ما يتكررش تاني..

- اللي حصل مني، ولا اللي حصل من "شيماء"؟!

- انتو الاتنين .. قوم اتوكل على ا ..

انصرفت من أمامه، وأنا أقول لنفسي "أنا اللي اسـ تاهل ضرب الجزمة" كانت كل خطوة أمشيها من "الدكان" إلى البيت، أثقل من الجبل على قلبي؛ وصلت الشقة، فتحت لي "شيماء" وفي عينيها نشوة الفرح .. جاءت "نجلاء" وسلمت علي، وجاءت أمها "مبوزة" كـ التي مات لها قريب ، دخلت البلكونة، تبعتني "شيماء":

- تشرب شاي ولا قهوة؟!

- لا شاي ولا قهوة .. روحي البسي عشان نسافر..

- مش هينفع النهارده، رايحه أزور واحدة صاحبتي..

- الأيام اللي فاتت دي كلها مانفعتش؟!

- هنزعل تاني؟ .. أنا اتفقت مع صاحبتي وهاروح لها النهارده، ساعة وهارجع.

- ١٠ -

لم توفق "عدليه" في اختيار الضرة المناسبة، بعد شهرين قضتهما في "الإسكندرية" نزلت ضيفة هي و "برعي هـلال" عند واحدة من قريبات أمي لها خمس بنات منهن من حصلت على الإعدادية، ومنهن من حصلت على شهادة الدبلوم، كانت "الصفقة " بين "برعي" و "عدلية " قد تمت مـن دون علمـي أو علم أخينا "مطاوع" هي فقدت "المبـايض" فـي الخطـأ الجراحي الذي دفعت ثمنه في النصف الثاني من السبعينيات، و "برعي" فشـل فـي زواجـه الثـاني، وكـان الاتفـاق – أو الصفقة – أن تقوم "عدلية" باختيار زوجـة لزوجهـا، ترضى عنها وتوافق عليها حتى لا تقع خلافات بعد الزواج؛ وآثار الأدوية التي تناولتها طوال عشرين عاما، تركت لهـا عدة أمراض في جسمها، أولها الصداع الشديد الذي يداهمها في موعد الدورة الشهرية، ثم "الـورم الخبيـث " – وهـذا اكتشفناه بالمصادفة – الذي أصاب ثديها، وقام أحـد أسـاتذة الجراحة باستئصاله، وبعد ذلك سقوطها أثناء قيامها بإعـداد وجبة العشاء؛ وفي عنبـر "العظـام " بمستشـفى أسـيوط

الجامعي، عرفنا أن "السرطان " نشط حتى بلغ العظام والكبد، وأن حياتها في الدنيا قصيرة قد لا تزيد على عدة أسابيع..

.. طوال فترة العلاج، كان " مطاوع " يرافقها وينفـق من جيبه، لأنه مدين لها بموقف نبيل أنقذه من السجن، كـان قد اقترض مبلغًا من أحد أصدقائه في "سوهاج" وعجز عـن السداد، حكى لـ "عدلية" فأعطته "الغـوايش" و "السلسـلة " باعها وسدد الدين، وظل يردد في مجالسه:

- أنا مديون لك يا "عدلية" .. ربنا يسـاعدني ونسـدد لك..

وظلّت عدلية تعيره كلما احتد عليها في مناقشة أو كلام:

- دنَا بعت لك دهبي عشان عيالك يتربوا..

.. وزاد المرض على "عدلية" ويئس " مطـاوع " مـن الإنفاق وتذمر "برعي هلال" وشكا لطوب الأرض، والمبلـغ الذي ورثته عن أبيها – ثلاثة آلاف جنيه – أودعه "برعي " في " مكتب بريد بنجا " باسمه، بحجة أن "عدلية" لا تسـتطيع التعامل مع موظفي البريد، لأنها لا تقرأ ولا تكتب، وتحولت جلسة أهالي " بنجا " الليلية – أمام بيته – إلى منتدى للإشادة بمجهوداته فهو الذي صبر على "عدلية" وعالجها، ومـازال

يواصل دوره في ظل غيابنا أنا و "مطاوع" أنا بين "القـاهرة" و "الإسكندرية" ومجلة " آخر ساعة" وحادثة "دعاء" وتداعيات طلاقي لها، جعلتني أكره "بنجا" وأخجل من الزيارات أو حتى لقاء ناسها، لأن الطلاق وإن كان تم بالتراضي وبوساطة أهل الخير وتهديدات سعادة المستشار – أيمـن السـايح – إلا أن الناس في " بنجا " في مثل هذه الحالات يسألون:

- طلقها ليه؟ .. أكيد شاف عليها حاجه غلط..

وهذا السؤال اضطر "حسب ا " "أبو دعاء" إلى أن يعلن في البلد أنه هو الذي سعى إلى تطليق ابنته لأننـي "صـايع" وبتاع سياسة وشيوعي وكافر، أدعو إلى الزنا وشُرب الخمر وإفطار شهر رمضان وأرافق "النسوان" في المقطم؛ وأشـاع بين الناس أنه لما جاء لزيارتي في "القـاهرة" عـرف مـن الجيران أنني "مش مظبوط" وأننـي "آكـل المـال الحـرام" و "أتقاضى الرشاوي" وقال إنني لم أتدخّل وأقوم بإلحاق ابنه "سعد" بمعهد أمناء الشرطة، لأنني طلبت رشـوة – خمسـة آلاف جنيه – وإنه لم يستطع تدبيرها لي.!

أما زوجته، فقد عقدت تحالفًا بينها وبين "بخيتة هـلال" جارتها في نفس الشارع وكانت ثمـاره "الدعائيـة" تشـويها

لصورتي، وصورة أختي "عدلية" مرة بادعـاء أن "عدليـة" كانت وراء قرار الطلاق لأنها عرفت العلاقة التي ربطـت بين حماتي السابقة و "برعي" فسعت لدي حتى طلقت "دعاء" ومرة بالقول إنني حاولت اغتصـاب "دعـاء" فـي رحلـة "سوهاج" وثالثة بأنني "متزوج في مصـر" ولـي أولاد فـي المدارس.!

.. كنت قد أخبرت "عدليـة" بزواجـي مـن "شـيماء" وباركت الخطوة قبل أن تسقط في المطبخ وتـدخل دوامـة "السرطان" وحضرت من "القاهرة " إلى مستشفى " أسـيوط " لزيارتها، وعرفت من سجل "الاستقبال " أنها خرجـت منـذ يومين، فذهبت إليها في " بنجا" ورأيت حالتها المتـدهورة ، كانت راقدة على سرير صغير فـي "المنضـرة" والحـريم حولها، والرجال جالسون في" وسعاية " أمام البيت؛ قضـيت الليلة، وسافرت – صباحا – إلـى "القـاهرة" عشـت أيامـا بمفردي في "المقطم" لأن "شيماء" – غضبانة " منذ أسـابيع، والعلاقات بيننا مقطوعة، حتى من قبل سفرها، لأن أداءهـا في الفترة السابقة على الزعل أدى بي إلـى هجرهـا فـي الفراش، فاستعانت بأسرتها، يأتي "علاء" فيقيم أسبوعا "واكل،

شارب، نايم" ثم قبل سفره، تكون " نجلاء " أختها قد حضرت لتحتل هي و "شيماء " غرفة النوم أسبوعا كاملا على طريقة أخيها " علاء" ثم تسافر، فيحضر أبوها وأمها؛.. تأملت مـا يحدث وحاولت أن أجد تفسيرا لهـذه الزيـارات الدوريـة، فتذكرت أنني بعد انقضاء الخلافات الخاصة بظهور الشـعر في حلمتيها ومؤخرتها، وعدم معرفتهـا أصـول "الطـبخ" وإصــابتها بمــرض "الأنيميــا الخبيثــة" والحمــى الروماتيزمية – بنـاء علـى شـهادة عـدد مـن أسـاتذة الطب – صارحتُها ذات مرة:

- قدامنا شهرين .. لو أحوالـك اتْصـلّحتْ وانتبهتـي لبيتك، وسبتي " أم محمد" والتليفونات اللي كل يـوم تصرفي عليها دم قلبي وفلوسي، آدي احنا عايشـين، وا استمريتي ع الحال ده.. يبقـى مـافيش غيـر الطلاق...

لم أكن أعرف أن هذه "المصارحة " سوف تفتح علـي "أبــواب جهــنم" تحضــر " نجــلاء" وتظــل هــي و "شيماء " – بالساعات – تجهزان محشي "الكرنب" ومحشـي "الكوسة" وتضفران شعورهما ضفائر صغيرة – على طريقة

الإفريقيات والنوبيات – وأنا في "البلكونة " أقـرأ الروايـات والكتب، حتى "جهاز الكاسيت " تنازلت عنـه لهـا، لتسـمع شرائط "عمرو خالد" و "حسين الجمـل" و "محمـد جبريـل" و "أحمد حسان" وغيرهم من خطباء التعذيب الإلهي وأهوال القيامة!

دخلت مقر المجلة، أعطاني "عبـد العـاطي" السـاعي "تلغراف":

- احضر حالا .. أختك على خطر..

نزلت إلى محطة السكة الحديد، ركبت قطـارا محطـة وصوله "أسيوط" ومنها ركبت مواصلات داخلية إلى "بنجا" ..

فتحت لي "بخيتة هلال "الباب وعلـى وشّـها الزنّجـي غضب ا :

- تعالَ .. إنت قاعد ف " مصر" وناَ وخويـا شـاربين المرار ، أنا نشيل ونُحط وانتـوا إيـدكم ف الميـه البارده!!!

وعدلية على سريرها، رأسها "أقـرع" سـلمت عليهـا وانهمرت دموعي، كانت الساعة الرابعـة صـباحا "بخيتـة"

خرجت بعد أن حملت معها المخدة و "البطانيـة" و "عدليـة" تقول كلمات لم أستطع تفسيرها:

- ابن الكلب، حوشوا النار، اوعي يا بت "الفروجـة " اتحرقت .. يا "بخيتة" .. ازقيني .. عطشانه، الحقْنَه واعره، الكلب هيعضني...

أدخن "السجائر" ودموعي تنزل؛ وأمامي صورة أمـي وأبي وبيتنا و "سلوى" و "شيماء" و "برعي هـلال" عنـدما تزوجها كانت "زي القاعود" بياض وجمـال "عدليـة" التـي خدمت أباها وأمها عشرين عاما، وكان حلمها الوحيد يتلخص في أن تحمل لقب " أم فلان " أو " فلانة " عشرات العمليـات الجراحية وعشران السفريات إلى "القاهرة" و "الإسكندرية" أنا شخصيا مدين لها، يوم عقدت قراني على "دعاء" فرحت، لأن أباها وأمها حملاها أمانة:

- عباس أمانة فِ رقبتك يا "عدلية" .. جوزيه واقفـي معاه ..

وعملت بالوصية، من ميراثها أعطتني ثمـن "التنجيـد" وظلّت طوال – العامين – ترسل الهدايا والأكـل للعروسـة "دعاء" وتعطي أولاد أخـي " مطـاوع" وتعطـي " سـلوى"

وعيالها، وإذا كان شهر " رجب " أعلنت "الصوم " إلـى أن ينتهي " رمضان " ..

- أنا ربنا حرمني مِ الخلفة .. يبقى نعمل لي " دخيرة " للآخرة .. وابويا وامي نقرا لهم الفاتحـة ونصـلّي ونصيم التلاته.عشان هوه دا اللي باقي، وكـلّ حـي يتلاقى بعمله..

.. حوالي السابعة صباحا، أحضـرت طبيبـة الوحـدة الصحية؛ كشفت عليها وقالت:

- كله بإيد ربنا بس الأمل ضعيف..

وجاء "برعي هلال" صافحني ببرود وقلتُ له:

- بعد إذنك .. "عدلية" لازم تـروح المستشـفى، أنـا هنوديها..

- وا هِيه قدامك. واللحـم لـو عفّـن هِيـاه يرجـع لِصحابه.!

* * *

في قسم "الباطنة " قضت "عدلية" يومين في غيبوبة، في اليوم الثالث قال رئيس القسم:

- من الأفضل إنّك تروحها البيت..

ماتت "عدلية" في عنبر الباطنة، وأنا وحـدي، خمـس ساعات مضت وأنا حائر ، وقّع رئيس القسم تذكرة الخروج المدون فيها سبب الوفاة وجاء " مطاوع " ، شعرت بـبعض الأمان ، حملنا الجثة في "عربة الإسعاف" وصلنا إلى " بنجا" وقمنا بإجراءات الغُسل والدفْن والجنازة، في اليوم الأخير بعد أن انتهت مراسم العزاء ركبت القطار إلى "القاهرة" وصـلت الشقة؛ عزاني "الشيخ ياسر" وزوجته في اليوم التالي قالـت لي:

- "شيماء" اتصلت من إسكندرية وعايزاك تسـافر لهـا ضروري..

* * *

اتصلت على تليفون "أم طاهر":

- أختي اللي فِ البلد توفّت، وشيماء غضبانه والحكاية بينّا واقفه ع الطلاق..
- أنا وا كنت خايفه، من عمايلهم اللي عملوها وكنت عارفه إن ده هيحصل..
- طب والعمل؟!

- العمل عمل ربنا.خلّيها كده، لحد ما تزهق عشان هيه لو طلبت الطلاق مش هتاخد، لا "قايمه" ولا "دهـب" ولا "نفقه" لكن إنت لو طلقت، هتخسر كل حاجـه ، يبقى تخسر جوازه وتخسر شقاك وفلوسك؟!.. اصبر شويه..
- يعني إنتي من رأيك أسيبها ف بيت أبوها؟.
- أيوه سيبها، لحد ما ييجوا يحبوا جزمتـك ويقولولـك "طلق" ويتنازلوا..
- بس زي ما انتي عارفه، همه لهم قرايـب هنـا ف "مصر" ونَاْ شغلي بيخليني طول النهار بره البيت .. وممكن يسرقوا "العفش" ويرجعوا يطالبوني بيه تاني أعمل إيه ساعتها؟! فيه كمان حاجه تاني .. الستّ "أم محمد" جارتنا مرات الراجل السني، كانت متصاحبه على "شيماء" وممكن برضـه تسـاعدهم وياخـدوا "العفش" ..
- وا اللي عندي قلته .. ودي حياتك وإنـت حـر .. اعمل اللي يريحك..
- طب لو سمحتي بعد إذنك ممكن أكلّم طاهر؟

- "طاهر" خرج مِ الصبح، قال لي عنـده "مسـرحيه" فِ البتاعه بتاعة "الثقافة" و "حوده " راح عند خالتـه ف البحيرة، ومصطفى طلع مأمورية تبع الشّغْل..
- وهمه يعني "شيماء" ولا أمها ماحـدش حكـى لـك حاجه؟!
- أبدا، دنَا باسأل "أبو علاء" قال لي إن "شيماء" راقـده عيانه؛ وقال لي إنك ضربتها وسقّطتها وبهدلتها..!
- أنا ضربتها وسقّطْتَها.؟!
- طب ماقالشي إن الدكتورة قالت إن دي مش ممكـن تحبل، وإن عندها حمى، و "المبايض" بتاعتها مـشّ شغالين؟!
- ماشي دي حاجتك ودا بيتك وربنا على عبيده ستّار، ودي حاجات بينك وبين مراتك أنا مالي؟!

- ١١ -

في شقة "المقطّم" جلس المأذون الشّاب، فـتح حقيبتـه الجلدية، و "عوض غريب" مثل رجل مخمور هـده السكر، والشيخ "ياسر" قال للمأذون:

- إحنا عاوزين نِعرف حقوق بنتنا.

- حقها معروف، نفقة سنة، ومتعة سنة .. شوفوا كـان بيديها كـام "مصـروف" واحسـبوا مـدة الجـواز واضربوها في عدد شهور السنة..

- لو سمحت احسِبها انْتَ..

يعني لو كان بيديها "٣٠٠ " جنيه فـي الشـهر، تبقـى "٣٠٠" في " ٢ " في " ١٢ شهر" وسنة المتعة زيها..

وسألني الشيخ "ياسر":

- معاك المبلغ دلوقتي؟!

- مش معايه غير المؤخّر .. والباقي ياخدوا بيه وصل أمانه..

ثم خرج ومعه "عوض غريب" وأنـا أنظـر للمـأذون الشاب، كأنه الطبيب الذي يتعامل مع "الميت" أو "المصـاب"

بأعصاب باردة؛ وأتأمل "المكتبة" و "الصالون المذهب" الذي اشترته "شيماء" وأسترجع ما جرى ليلة أمس؛ دخلـتُ دورة المياه" خرجتُ، دخلتُ أوضة النوم، كانت تطرز مفرشًا قالت إنها ستقدمه هدية لأختها "نجلاء" قلتُ لها:

- هنطلقك بكره..
- وليه بكره، أنا عاوزه اتطلق دلوقت.هيه العيشة معاك دي تسميها عيشه؟ واحد ما بيصليش، حتـى بتاعـه مابيغسلهوش، وكل عيشته حرام ف حرام .. طلقني مستني إيه؟!!
- عشَان بس المسافة بعيدة، والدنيا ليل، مِـش عـاوز أتْعِب الجماعة..
- مالكشي دعوة .. طلّقْني دِلْوقْت...

ثم جرت إلى شقّة "الشيخ ياسر" طرقت الباب حتّى خرج لها:

- لو سمحت "الموبايل" بتاعك أكلم بابا..

دخَل؛ ثم عاد وأعطاها "الموبايل"..

- يا بابا تعالَ بكره الصبح ضروري عشَاْن أنا عيانـه أوي و "عباس" في "بني سويف" عند أخته..

أغلقت باب شَقّتْنا وأطرافها ترتعش ووشّها أصفَر:

- أنا مِ الأول ماكنتش موافقـه، أبويـا ا ا يسـامحه.. مِ الأول كنت حاسه وبعدين إنت مش كُنت متجـوز وخبيت عليه، أنا لقيت جواباتك اللي كاتبها لواحـدة اسمها دعاء، وقسيمة "طلاق" .. إنت فاكرني نايمـه على وداني؟!

كُلّ ده وفِ الآخر عاوز تطلّق!

وعندما جاء أبوها وأمها – في صباح اليـوم التـالي – حكَتْ له فانْفَجر:

- أيوه يا "عباس" بيـه، يـاللي لمينـاك، وجوزنـاك، واستحملناك .. عامل نفسك راجـل؟.. قـوم طلـق دلوقت .. ما تقوم لو راجل بصحيح!!

جاء الشيخ "ياسر" وكرر "عوض غريب" الكلام:

- عاوز يطلق بنتي، عشان بتقول له اغسل بتاعك، قبل ما يتنيل ينام معاها..

وهو ينظُر إلي علا صوته أكثر:

- خلاص .. خَدت مزاجك، فتحتها، وخدت مزاجك .. ودلوقتي عاوز تطلق.. وبعدين اعمل حسابك. أنا هنا

ليه عزوة، ابن عمي عميد فِ "المطار" وابن خـالتي "مستشار" يعني هتعمل "صحفي" عليـه، هاربيـك؛ هاعلمك الأدب.. اللي ما عملوش أبـوك .. أعملـه أنا..

- خلاص .. هيه كده خلصت..

نزلـت علـى درجـات السـلم كـالمجنون؛ ركبـت "ميكروباص" إلى ميدان "السيدة عائشة" ومنه إلى المجلة فـي "شارع الصحافة" حكيتُ لأصدقائي القريبين مني؛ ولأن "ربنا مش رايد بالفضيحة" – كما كانت أمـي تقـول – أعطـاني "عادل مجاهد" ألفي جنيه " كان قد جهزها ليدفعها قسطًا مـن أقساط ثمن قطعة "أرض مباني" في "مطروح" ...

وقّعت في دفتر المأذون بعد أن جعلني أقول وراءه:

- طلقت زوجتي "شيماء عوض"..

وجعلها تقول:

- ابرأتُ مطلّقي "عباس كيلاني" من كُلّ شيء..

لملم "المأذون" أوراقه وهو يقول:

- السلام عليكُم .. ربنا يعوض عليكُم..

وقال "الشيخ ياسر":

- هات نُسخة من مفتاح الشقّة، وروح في أي جِتّه، لحد ما الجماعة ياخْدوا العفْش بتاعهم..

* * *

طوال أسبوعين وأنا مقيم في "بني سويف" ضيفًا علـى أختي "سلوى" التي مات زوجها عن أربعين سنة، قضاها في "حارة مرزوق" – إحدى حواري حي "الأزهري" – وديـوان مجلس مدينة "إهنَاسيا" – موظفًا في الأرشـيف – وسـجون "وزارة الدفاع" و "وزارة الداخلية " – لأنـه عقـب التحاقـه بسلاح "الإشارة " شأنه شأن آلاف الشُّبان المجنّدين إجباريـا، هرب من الخدمة لمدة سنة قام خلالها بعمليات نَصب صغيرة على " فلاحين " يملكون دكاكين بقالة في قُرى وعزب "ِببا" و "سمسطا" و "الفَشْن" انتحل صفة مفتش تموين وسطا علـى ما في أدراج البقالين من فلوس لينفق علـى أولاده " علـي" و "ناهد" و "طارق" بعد أن أكل إخوته حقوقه فـي ميـراث تركه أبوه "محل عصير قصب وبيت من دورين مؤجر فـي حي بني سويف الجديدة" الذي هو عبارة عن امتداد عمراني لقرية " بني عطية" والمعاش الذي تركه يكفـي – بالكـاد – مصاريف أولاده، ومصاريف أمراض "سلوى" المزمنة..

قالت "سلوى" وهي راقدة على "الكنبة":

- فيه واحد يعرف "طارق" ولدي، تشتري مِنّه الحاجة، بالقسط على سنتين، يديك تمنها "كاش" وتـدفع لـه الفرق أقساط على مرتبك، فيه ناس كتير – نعـرفهم أنا عملوا الحكاية دي وفكّوا زنقتهم..

- أنا ممكن نشتري غسالة فول أتوماتيك وتلاجة ..

الأول روح شوفه، هيعوز منك قسط كام فـي الشـهر، وشوف مرتبك.هيكفي ولا لأ.!

.. أعطاني صاحب شركة "العرب للأجهزة الكهربائية " استمارة فيها البيانات والشروط، وبالآلة الحاسـبة، ثبـت أن القسط المطلوب " ٢٥٠ جنيها " شهريا؛ سافرت إلى "القاهرة" وكتبت "الطلب" وألصقتُ عليه طابع "التمغة" ودخلتُ مكتـب السيدة " إحسان الجنايني"..

- الطلب ده مرفوض يا أستاذ، لأنّي مابانتعـاملش مـع القطاع الخاص؛ الحالة الوحيـدة المسـموح بيهـا، لو كان فيه "بنـك حكومـة" زي "البنـك الأهلـي" ولا " بنك ناصر " غير ده لأ ..

.. رجعت إلى "بني سويف" يملأني الخوف من الفصل، لأن عقوبة "تبديد المنقولات" جناية "ماسة بالشرف"، لـو أن القاضي أصدر حكمه، فسوف يترتّـب عليـه فَصـلي مـن "المجلة" والنقابة ، قضيت الليلة مكتئبـا، داهمنـي صـداع نصفي؛ بل إنني فكرت في الهرب إلى ليبيا أو العراق وبيـع شقة المقطم، وترك مهنة الصحافة، وفكرت في العودة إلـى "بنجا" على الأقل هناك طريقة للهرب من تنفيذ حكم المحكمة، بالقرابة أو الرشوة..

* * *

ركَن " طارق " ابن أختي "العجلـة" وابتسـم ابتسـامة عريضة وهو يقول:

- خلاص يا خال .. المشكلة اتحلّت ..
- إزاي .. لقيت حد يسلفني "السبع تلاف جنيه" ؟!!
- عرفت لك شركة بتتعامل مع "البنك الأهلـي" المقـر بتاعها فِ " مصر " في " شارع شريف" وليها فـرع هِنَا فِ شارع المـدارس؛ سـألت موظـف هنـاك وشرحت له الوضع، وقال لي ينفع يقسط لك، بـس لازم موافقة المجلة..

أنجزت مهمة الحصول علـى موافقـة الإدارة الماليـة بالمجلة على تحويل " ٢٥٠ " جنيها " من راتبي لصالح فرع "البنك الأهلي " في " بني سويف" وذهبـتُ أنـا و "طـارق" ومندوب شركة "المدينة المنورة للأجهزة الكهربائيـة " إلـى مقر البنك ، ابتسم مدير "الائتمان" وقال:

- كده مظبوط..

أحسستُ بفرحة تفوق فرحتي بقرار تعييني في المجلة، وفرحتي وأنا أوقع "الطلاق" وفي مقر الشركة قال مديرها:

- طبعا إنت هتشتري تلاجه وغساله؟
- الموافقة قدامك أهه و "التحويل " من الشهر الجاي ..
- مِ الآخر كده .. إنت عاوز كام؟!
- عاوز تلاجه وغسالة..
- إنت عاوز فلوس .. أمال جاي " تحرق " [١] ليه؟ .. وأنا هاشتري منّك زي السوق، وروح إسأل وبينـي وبينك ربنا..

([١]) الحرق معناه شراء سلعة بالتقسيط وبيعها نقدا وهي وسيلة يلجأ إليها المأزومون ماليا خصوصا الموظفين.

قبضت "أربعة آلاف جنيه" والمطلوب مني سداده "سبعة آلاف جنيه" الآلاف الثلاثة "مكسب حققته الشركة في ثـوان، ولم تكن أمامي وسيلة أخرى؛ لا صديق يسلفني، ولا أحد من أقاربي يستطيع أن ينقذني من الورطـة، ولا أملـك أرضـا أو بيتًا أبيعه، ولا ادخرتُ فلوسا في بنك أو "دفتر توفير" حتى أخي "مطاوع" – لو أنني طلبتُ منه – لا يملك المبلغ الـذي أحتَاجه.!

* * *

شربتُ "الشاي" وأعطيت "الفلـوس " للشـيخ " ياسـر " فاندهش بعد أن عدها:

- بس مش دا المبلغ المطلوب، والوصـل اللـي انـت مضيت عليه مكتوب بسبعة مش أربعة؟!

- وا يعلم ربنا باللي عملته عشان ندبره.!

صمت قليلا وبانت علامات الحزن على وجهه ثم قـال بصوت خفيض:

- ع العموم .. فيه إخوه هنا ممكن يساعدوا..

- إزاي؟ .. هيدوني "الزكا" ولا "الصـدقه"؟ .. وانـت ترضاها لي يا "شيخ ياسر"؟!! "السجن" عندي فِ الحالـة دي

أشرف لي، وأكرم لي. واللي معاهم يعملوه .. ولو "عـوض غريب" عاوز يرفع "الوصل" في "المحكمة " يرفعه من بكره لو عايز..!

- يا أخّ "عباس" – أنت أخ مسلم، واحنـا والحمـد مسلمين، والرسول عليه الصلاة والسلام أوصانا بتفريج كُربة المسلم "من فَرج عن أخيه كُربةً من كرب الدنيا فرج ا عنه كُربة من كُرب يوم القيامة"، وإن شاء ا ، أنـا هاتصـرف واكمل اك المبلغ، وانت أبقى سدد على مهلك..

- دا جميل مش ننساه ليك أبدا .. "بارك ا فيك وعليك وجزاك ا عنا خيرا" ..

- وجزاك يا أخي ، مش تقوم بينـا نصـلّي المغـرب فِ المسجد؟

- نصلّي؛ وربنا يسدد ما علينـا، ويقـدرني علـى رد جمايلك...

الجيزة – العمرانية الغربية

٥/ ١٠/ ٢٠٠٣م

*** خالد إسماعيل**

* من مواليد ١٩٦٨/٦/١، في كوم العرب – سوهاج.

صدر له:

- درب النصارى – (قصص).– سلسلة إبداعات
- عقد الحزون (روايـة).دار الأحمدي.
- كُحل حجر (روايـة). دار ميريت.
- غرب النيل (قصـص). دار ميريت.